سلسلة الحياة الطيبة

# المهتدون

من وصايا الإمام الباقر عليه السلام لتلميذه جابر

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
إعداد مركز نون للتأليف والترجمة

سِلسِلةُ الحَياةِ الطَيِّبة

# المهتدون

| | |
|---|---|
| اسم الكتاب: | المهتدون |
| إعداد: | مركز نون للتأليف والترجمة |
| نشر: | جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة |
| الطبعة الأولى: | 2015م - 1436هـ |


©جميع حقوق الطبع محفوظة

# المهتدون

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
إعداد مركز نون للتأليف والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

# الفهرس


المقدمة ..... 9

**1. الحرص والقناعة** ..... 11

تعريف الحرص لغة ..... 12

مناط الحرص ..... 12

الحرص المذموم وسوء العاقبة ..... 13

اليهود والحرص المذموم ..... 14

ساحة القناعة ..... 15

القناعة لغة ومفهوماً ..... 16

أغنى الناس وأعزّهم إلى الله ..... 17

الحياة الطيّبة ..... 17

إيثار القناعة ..... 18

**2. الزهد وقصر الأمل** ..... 21

حقيقة الزهد ومنزلته ..... 22

قدوة الزاهدين ..... 22

حلاوة الزهادة ..... 23

مخاطر طول الأمل ..... 24

الفرق بين طول الأمل وعلوّ الهمّة ..... 25

فكّر بقِصَر أمَد الدنيا! ..... 26

كيف نتعامل مع الدنيا؟ ..... 26

مضرب المثل في قصر الأمل ..... 27

العاقل لا يغترّ بطول الأمل ..... 28

الزهد وقصر الأمل ..... 29

**3. الطمع وبعد الهمّة** ..... 31

المؤمن عزيز بعزّة الله ..... 32

منشأ الطمع ..... 33

الطمع إذلال لفطرة الإنسان ..... 33

أَمِت الطمع كي تعيش عزيزاً ..... 34

اليأس عمّا في أيدي الناس ..... 35

العزّ مع اليأس ..... 36

علوّ الهمّة طريق للعزّة 38
الجمع بين الثقة بالنفس والتوكّل على الله 38
4. العجب ومعرفة النفس 41
المنهج التربوي الربّاني 42
الداء الدفين 42
معنى العُجْب لغةً واصطلاحًا 43
العُجْب من أشراك الشيطان الخطيرة 44
مفاسد العُجب 44
العُجب بذرة الرذائل 45
العجب مقرون بالغرور 46
علاج العُجْب بمعرفة النفس 47
معرفة النفس مقدّمة لمعرفة الله 47
معرفة النفس مقدّمة لمحاسبتها 48
الفكر ينير اللب 49
الأفكار أئمّة القلوب 50
5. التفويض والراحة 51
الراحة تكمن في الإيمان والتفويض 52
معنى التفويض الحقيقي 52
المؤثّر المستقلّ هو الله وحده 53
نماذج من النعم الإلهيّة الخاصّة بالمتّقين 53
الراحة والبركة للمفوِّضين أمورهم إلى الله 54
لا ينبغي الخلط خطأً بين التفويض والتقاعس 55
الفارق بين وصفة الأنبياء ووصفة الماديّين للراحة 56
التفويض هو أنجع وصفة للراحة 57
التفويض لا يعني ترك المسؤولية 58
شرود الذهن أحد عوامل معاناة البدن 59
علاج شرود الذهن بترك الذنوب 60
6. رقّة القلب والخلوة مع الله 61
رقّة القلب باب كلّ صلاح 62
السعي إلى تطوير حالة القلب 63
معنى رقّة القلب ومفهومها 63
القلب في القرآن الكريم 64

القرب من الله مناط القيمة الأخلاقيّة في الإسلام 64
السبيل لمعالجة قسوة القلب 66
محاربة حالة الغربة عن الذّات 66
الخلوة في جوف الليل هي أفضل فرصة 67
الخلوة القلبية 68
7. الحزن ونور القلب 71
منزلة القلب 72
للقلب مرآة يُرى الكون ضمنها 72
معنى نور القلب ومفهومه 73
أسئلة حول الحزن 75
هل الحزن مُحبَّذ أم غير محبّذ؟ 75
فعل الله لا تنقصه الحكمة 76
اختلاف الرؤية الإلهيّة عن الرؤية المادّية 76
الحزن على الدنيا أم على الآخرة؟ 77
الجمع بين الحزن والفرح 78
العلاقة بين دوام الحزن ونور القلب 79
8. الخوف والرجاء 81
العلاقة بين الخوف والرجاء 82
شيمة المتّقين 83
الخوف جلباب العارفين 84
فِعل الله لا يخلو من حكمة 85
ينبغي الخوف من المعصية 85
معنى الخوف ومراتبه 85
هل الخوف محبَّذ أم غير محبَّذ؟ 86
خوف أهل المعرفة 87
كيف يبعد الخوفُ الصادق الشيطانَ 88
9. الحبّ الإلهي والصدق 91
الأخلاق ورقيّ الأمم 92
فطرة السعي وراء المحبوبيّة 92
سُبل كسب المحبوبيّة 93
كيف نكون محبوبين عند الله 94
المراد من الصدق 95

الطاعة والحبّ الإلهي 95
أحبّاء الله 69
المنافقون في الدرك الأسفل 96
عقوبة نكث العهد مع الله 97
المسارعة في خدمة المولى 98
**10. التسويف** 99
مصيدة الشيطان 100
ثلاث صور لإنجاز العمل 101
بحر يغرق فيه الهلكى 101
الفرق بين التسويف والتريّث 102
مَهلَكة التسويف 102
خطر تسويف التوبة 103
لا دين لمسوّف بتوبته 104
النفس والتسويف 105
من غصص التسويف 106
**11. الغفلة والتواني** 109
مصيبة الغفلة 110
من هوان الدنيا على الله 111
أسباب الغفلة 111
الغفلة تُقسّي القلب 113
فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلوبُهُم 114
لماذا الضعف والتواني؟ 115
انتهاز الفرص 115
**12. الاستغفار والمراجعة** 119
تشريع الاستغفار 120
الاستغفار بعد الطاعة 120
تصفّح الأعمال 121
حلاوة المناجاة تُشعِر بمرارة الذنوب 122
حبّ الدنيا، يُعيق حبّ الله 123
السبيل لعلاج حبّ الدنيا 124
تحذير للإخوة من طلبة العلوم الدينيّة 124
حلاوة المناجاة 125

# المقدمة

والصــلاة والسلام على أشرف الخلق وأعزّ المرسليــن سيّدنا ونبيّنا محمد وعلى آله الطاهرين المعصومين.

يقــول الإمام الذاكر الخاشع الصابر أبو جعفر محمد بــن علي الباقر عليه السلام في وصيّته لتلميذه جابر: «... **وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة، واستجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسدّ سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخلّص إلى راحة النفس بصحّة التفويض، وتعرّض لرقّة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرّز من إبليس بالخوف الصادق، وإيّاك والرجاء الكاذب، فإنّه يوقعك في الخوف الصادق، وإيّاك والتسويف، فإنّه بحر يغرق فيه الهلكى، وإيّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدّة الندم وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم**،..»[1].

إنّ مــدار هــذه الوصايا مخاطبة ذوي القلوب الواعية، والنفوس المتطلّعة إلى ما عند الله تعالى، أن يبذلوا جهودهم في تحرير عقولهم، وتطهير نفوسهم من الأفكار السلبية السيّئة التي إذا تبنّاها الإنسان وعمل بها أصبحت أدواء فتّاكة ورذائل خُلقية ملازمة له، ولا تتركه حتى تورده موارد الهلاك فــي الدنيا والآخرة. نسأل الله العلي الكريم أن ينفعنا بهــذه المواعظ والوصايا في الدنيا والآخرة، وأن يجعلنا من الذين يتسمعون القول فيتّبعون أحسنه.

والحمد لله رب العالمين

مركز نون للتأليف والترجمة

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 163 – 164.

# الحرص والقناعة

## نصّ الوصيّة

- قال الإمام أبو جعفر مُحمد بن علي الباقر عليه السلام موصياً صاحبه، وتلميذه النجيب جابر الجعفي:

«وَانْزِلْ سَاحَةَ القَنَاعَةِ بِاتِّقَاءِ الحِرْصِ، وَادْفَعْ عَظِيمَ الحِرْصِ بِإِيثَارِ القناعةِ»[1].

(1) العلامة مُحمد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، ج 75، ص 163 – 164، باب وصايا الباقر عليه السلام، الطبعة الثانية: مؤسسة الوفاء، بيروت لبنان، 1403 هـ – 1983 م.

## تعريف الحرص لغة

قالَ الأَزْهَرِيُّ: «الحِرْصُ بالكَسْرِ: الجَشَعُ؛ وهو شِدَّةُ الإِرَادَةِ والشَّرَه إِلَى المَطْلُوبِ...، وقَوْلُ العَرَبِ: حَرِيصٌ عَلَيْكَ مَعْنَاه حَرِيصٌ عَلَى نَفْعِكَ. قُلْتُ: ومِنْهُ قَوْلُه تَعَالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أَي: عَلَى نَفْعِكُم أَو شَفُوقٌ عليكم رَؤُوفٌ بكم، فالحِرْصُ في القُرْآنِ على وَجْهَيْن: فَرْط الشَّرَه كقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ والشَّفَقَة والرَّأْفَة كقَوْلِه تعَالَى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾.... قال: واللغة العالية حَرَصَ يَحْرِصُ، وأَما حَرِصَ يَحْرَصُ فلغة رديئة. قال: والقُراء مُجْمِعون على ولو حَرَصْت بمؤمنين ورجل حَرِيصٌ من قوم حُرَصاءَ وحِرَاصٍ وامرأَة حَرِيصةٌ من نسوة حِرَاصٍ وحَرائِصَ»[1].

## مناط الحرص

«المناط في الحرص هو حبّ الزيادة في الأمور المادّية. لكنّ كلمة «الحرص» لها مفهوم عامّ يُستعمل للأمور الحسنة أيضاً؛ فقد وُصف النبيّ الأكرم ﷺ في القرآن الكريم بأنّه كان حريصاً على هداية الناس: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

إذن فالمفهوم اللغويّ للحرص لا ينطوي على معنى سلبيّ، فالإنسان المحبّ للتطوّر والتكامل في أيّ بعد من الأبعاد والذي لا يرى للسير في هذا الطريق حدّاً يقف عنده يُسمّى حريصاً. لكنّ مصطلح الحرص الشائع في ثقافتنا ومباحثنا الأخلاقيّة يختصّ بالحرص على زخارف الدنيا، وهو لذلك مذموم، فالحرص في الأخلاق يعني حبّ الإنسان للزيادة في الأمور المادّية والدنيويّة؛ فالحريص على الثروة هو الذي لا يكتفي بأيّ مقدار منها، والحريص على الزواج هو الذي لا يقنع بأيّ زوج، والحريص على المنصب والمقام هو الذي لا يكتفي بأيّ منصب ويُحاول دائماً الحصول على منصب أعلى منه.

---

(1) محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، ج 7، ص 11، طبعة 1، دار صادر، بيروت.

(2) سورة التوبة، الآية 128.

وبقرينة أنّ الحرص يُصنَّف ضمن الأخلاق الذميمة فلا بدّ من توفّر واحدة من اللوازم التّالية كي يكون مذموماً: فإمّا أن يكون نفس الأمر المطلوب حراماً، أو أن يكون السبيل للوصول إليه محرّماً، أو أن يحول السعي وراءه بين الإنسان وبين الواجبات والأعمال التي هي أفضل منه.

فأنْ يتقيّد شخصٌ - مثلاً - بكسب المال الحلال، بل وأن ينشغل ذهنه منذ الصباح وحتّى المساء في كيفيّة زيادة دخله، ولا يخلد إلى الرقاد ليلاً إلاّ وهذه الأفكار تعصف بمخيّلته، ويُشاهد في المنام رؤىً لها علاقة بهذا الأمر، فهذه الحالة - بحدّ ذاتها - ليست محرّمة أو مذمومة، لكن من حيث إنّها تزاحم أداء تكاليفه الواجبة وتحول دون سيره في طريق تكامله، وتُعيقه عن طلب العلم والعبادة وخدمة عباد الله وما إلى ذلك فإنّها تكون مذمومة بالعَرَض»[1].

## الحرص المذموم وسوء العاقبة

تُطالعنا الآيات القرآنية الكريمة بخبر من أخبار خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام وكيف أمر قومه بتوحيد الله عزّ وجلّ، ونهاهم عن بخس المكيال والميزان وطالبهم بإيفاء الحقوق لأصحابها، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]، ولكن الخصال الذميمة التي كانت تحتويها نفوسهم حالت دون فلاحهم، فحرص القوم على المزيد من الملذّات الدنيوية، والطمع في التكاثر في الأموال والثروات دفعهم إلى أن يُديروا ظهورهم للحقّ، ويتركوا دعوة نبيّهم عليه السلام، ويُنكروا التعاليم الإلهية الّتي جاء بها هذا النبي الكريم قائلين له: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[3]، وفي كتاب الله تعالى العديد من الآيات القرآنية التي بيّنت كيف أنّ الحرص المذموم كان أحد أهمّ أسباب الكفر بالله تعالى، وبالتّالي سوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 12 آب، 2011 م.

(2) سورة الأعراف، الآية 85.

(3) سورة هود، الآية 87.

## اليهود والحرص المذموم

لا يُمكن لمن يُريد أن يستعرض أو يُشير إلى النتائج السلبية والعواقب الوخيمة لحالة الحرص والطمع وحبّ الدنيا على الإنسان من دون أن يمرّ على أعمال اليهود في هذا الشأن كونهم شربوا من قدح الحرص حتى الثمالة، فقد ذمّهم الباري عزّ وجلّ قائلاً: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾[1]. فهم حريصون على جمع الثروات، حريصون على حيازة مقدّرات الشعوب والتسلّط على الدنيا، حريصون على الملك وتسلم زمام الأمور لإفساد الخلائق...، والعجيب أنّهم أحرص على ذلك من المشركين الّذين لا يلتزمون بأيّ دين، ولا يعتقدون بأيّة شريعة سماوية، في حين إنّ التعاليم الموسوية تذمّ هذه الحالة السلبية السيّئة، كما أنّ المفروض بالإنسان الملتزم بالدين والشريعة أن تؤثّر فيه التعاليم الإلهية، وتحدّ من حرصه على الدنيا: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[2] فهؤلاء من شدّة حرصهم على الدنيا، وبدافع الخوف من العذاب الإلهي الّذي ينتظرهم بسبب جرأتهم على الله وظلمهم الجائر، وعدوانهم وغصبهم لحقوق غيرهم، وسفكهم لدماء الأبرياء، فإنّه لا يوجد شيء يُبغضونه كما يُبغضون الموت: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِالظَّٰلِمِينَ﴾[3] كما أنّ حالتهم في هذا العصر لم تختلف عنها في العصور السابقة، بل يعيشون حالة الحرص الشديد أشدّ وأكثر من السابق.

والتاريخ المعاصر يشهد بأنّهم وراء كلّ الفتن الّتي احترقت الشعوب بسعير نيرانها،وحمم الجنايات المرافقة لها، فما أكثر الحروب الدامية الّتي أشعلوها بين أبناء المجتمعات البشرية، وما أكثر دماء الأبرياء المسفوكة، والّتي أُريقت من جرّاء مخطّطاتهم وتدابيرهم الخسيسة، وما أكثر الأسلحة والمواد المخدّرة الّتي تاجروا بها لإفساد وتدمير العلاقات الاجتماعية بين أبناء البشر، وما أكثر الكذب والدجل الذي يروّجونه بين الناس من خلال تحكّمهم بوسائل الإعلام العالمية الّتي يوجّهها الصهاينة واليهود ويقفون وراءها، كلّ ذلك في سبيل المزيد من الحرص على تدعيم أركان سيطرتهم على مقدّرات الأُمم والشعوب، وللأسف الشديد أن تجد الكثير من المسلمين في هذه الأيّام يُساعدونهم على إنجاح ما خطّطوا له، وما هم ماضون في تنفيذه.

---

(1) سورة البقرة، الآية 96.

(2) سورة البقرة، الآية 96.

(3) سورة البقرة، الآيتان 94 و 95.

## إخبار وإنذار

إنّ أيّ عاقل من العقلاء يعلم علم اليقين أنّ الخصال الذميمة خطيرة على من لم يحذرها، فهي تُلاحق الإنسان ملاحقة شديدة، حتى في الأحوال التي تشيب فيها اللحية، وتُضعف فيها الهمّة، ويدنو فيها من انتهاء العمر، وزيارة القبر، ولأنّ الحرص المذموم من أخطر هذه الخصال، فقد خاف مولانا رسول الله ﷺ هذه الخصال الذميمة على أمّته لأنّها لا تخضع للهرم أو الشيب، فهي كعجلة دائرة، لا يحول دونها إلا الموت، وقد حذّر منها بأسلوب الإخبار المتضمّن للإنذار، فقال أرواحنا له الفداء: «**يهرم ابن آدم وتشبّ منه اثنتان، الحرص على المال، والحرص على العمر**»[1]، وقال ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف**»[2].

وقال أخوه أمير المؤمنين عليه السلام: «**من جمع له مع الحرص على الدنيا البخل بها، فقد استمسك بعمودي اللؤم**»[3]، وأنشأ مولانا سيد الشهداء الإمام أبو عبد الله الحُسين عليه السلام قائلاً:

كَفى بِالمَرءِ عاراً أَن تَراهُ
مِنَ الشَأنِ الرَفيعِ إِلى اِنحِطاطِ
عَلى المَذمومِ مِن فِعلٍ حَريصاً
عَلى الخَيراتِ مُنقَطِعَ النشاطِ[4].

وكان إمامنا السّجاد زين العابدين عليه السلام يستعيذ بالله تعالى من الخلال الذميمة فيقول: «**اللهم إنّي أعوذ بك مِنْ هَيجانِ الحِرصِ وَسُورَةِ الغَضَبِ وَغَلَبَةِ الحَسَدِ وَضَعفِ الصَّبرِ وَقِلَّةِ القَناعَةِ...**»[5].

## ساحة القناعة

«يُتابع الإمام الباقر عليه السلام حديثه الشريف الذي يوصي به جابر فيقول عليك بالنزول إلى ساحة القناعة عن طريق تجنّب الحرص، وأن تدفع عنك عظيم الحرص من خلال انتهاج القناعة والزهد، وتظفر بحلاوة الزهد بتقصير الأمل. وتطرح هذه الجمل الثلاث، المرتبطة مع بعضها البعض إلى حدٍّ ما، بضعة مفاهيم أخلاقيّة نعرفها جميعاً ألا وهي: القناعة في مقابل الحرص، والزهد في

(1) الشيخ الصدوق، مُحمد بن علي بن بابويه القمي، الخصال، ج 1، ص 273، طبعة 1، جماعة المدرسين، قم.
(2) الشيخ محمد بن الفتال النيسابوري، روضة الواعظين، ج 2، ص 429، منشورات الرضي، قم.
(3) عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ج1 ص261، اللؤم واللئيم، طبعة قم 1366 هـ.
(4) ديوان الإمام الحُسين عليه السلام، ص 146.
(5) الإمام علي بن الحُسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، الصحيفة السجادية، الدعاء 8.

مقابـل التعلّق بالدنيا، وقصر الأمـل في مقابل طول الأمل... ونجـد أنّ الإمام الباقر عليه السلام يسوق تعبيـراً حول القناعة هو غاية فـي البداعة والجمال. فالبحث أساساً كان يدور حول كون المؤمن في هـذه الدنيا في حـال صراع مع نفسه وهو عليه السلام في صـدد أن يُبيّن له سبل تجنّـب السقوط أرضاً والسعي للغلبة على خصمه، وإنّ أحد هذه السبل هو القناعة.

لكـنّ الإمـام عليه السلام يستخدم للقناعة هنـا تعبيراً ملؤه الوقـار والاحترام فيقـول: «انزل ساحة القناعة»؛ فهو يرسم ساحة مباركة ثمّ يقول: حاول أن تلج هذه الساحة! وكأنّه يريد القول: إنّ مسألة القناعـة مسألـة بالغـة الأهمّية وعليك أن تنظر إلـى القناعة نظرة احترام وتبجيـل وأن تبذل غاية الجهـد للظفر بها. ثـمّ يقول: «من أجل أن يتسنّى لـك دخول هذه الساحة وأن تصبـح إنساناً قانعاً يتحتّـم عليـك اتّقاء الحرص لأنّه عدوّ القناعـة، بل وقد عُدّ في الخبر من دعائـم الكفر؛ بمعنى أنّ الحرص سينتهي بالإنسان الحريص إلى الكفر شاء أم أبى»[1].

## القناعة لغة ومفهوماً

هـي الاجتزاء باليسير من الأعراض المحتاج إليها. يُقال: قنع يقنع قناعـة وقنعانا: إذا رضي، وقنع يقنع قنوعاً: إذا سأل،... قال تعالى: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾[2].

قـال بعضهـم[3]: القانع هـو السائل الذي لا يلحّ في السـؤال، ويرضى بما يأتيـه عفواً،.. وأقنع رأسه: رفعه. قال تعالى: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾[4]، وقال بعضهم: أصل هذه الكلمة من القناع، وهو ما يُغطي به الرأس، فقنع، أي: لبس القناع ساتراً لفقره كقولهم: خفي، أي: لبس الخفاء..[5].

وتوجـد علاقة متينة بين القناعـة وبين الزهد والرضى، ولذلك عرَّف بعضـ أهل اللغة القناعة بالرضى، والقانع بالراضي[6]. قال ابن فارس: «قنع قناعة: إذا رضي، وسُمّيت قناعة لأنّه يُقبل على الشيء الذي له راضياً»[7].

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 12 آب، 2011 م.
(2) سورة الحج، الآية 36.
(3) الزجاج في معاني القرآن، ج 3 ص 428.
(4) سورة إبراهيم، الآية 43.
(5) الحسين بن محمد، «الراغب الأصفهاني» مفردات ألفاظ القرآن، ج 2، ص 263 ـ 264، ط: دار القلم.
(6) محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج 11، ص 321، مادة (قنع).
(7) أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، ج 5، ص 23، مادة (قنع).

## أغنى الناس وأعزّهم إلى الله

بيّـن مولانـا رسـول الله ﷺ أنّ حقيقة القناعة هي غنى القلب، وتلـك حقيقة لا مرية فيها، فقد روى أبو ذرّ الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر، أترى كثرة المال هو الغنى؟ قُلتُ: نعم يا رسول الله، قال**: «**فترى قلّة المـال هو الفقر؟**» قُلتُ: نعم يا رسـول الله. قال: «**إنّما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب**»[1].

وقـال ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العَرَض**[2]**، ولكن الغنى غنى النفس**»[3]. فكم من غنيّ عنده من المال ما يكفيه وولدَه ولو عُمِّر ألف سنة؛ يُخاطر بدينه وصحّته ويُضحّي بوقته يريد المزيد! وكم مـن فقيـر يرى بسبب قناعتـه أنّه أغنى الناس؛ وهو قد لا يجد قوت يومـه! فالعلّة في القلوب: رضيً وجزعاً، واتساعاً وضيقاً، وليست في الفقر والغنى.

ومـــن أَشْـــرِبَ الـيـأسَ كـان الـغـنِـيَّ
ومـــن أُشْـــرِبَ الـحـرصَ كـان الـفـقـيـرا.

وبالقناعـة يتحقّـق شكر المنعم سبحانه وتعالى، وذلك أنّ من قنـع برزقه شكر الله تعالى عليه، ومـن لم يقنـع قصَّر في الشكر، وربما جزع وتسخّط، والعياذ بـالله، ولذا قال النبي ﷺ: «**كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قنعاً تكن أشكر الناس**»[4].

كما أنّ العزّ في القناعة، والذلّ في الطمع، وذلك أنّ القانع لا يحتاج إلى الناس، فلا يزال عزيزاً بينهـم باستغنائـه عنهم، والطمّاع يُـذلّ نفسه من أجل المزيد؛ ومن حديـث جبرائيل عليه السلام للنبي الأكرم ﷺ: «.. **واعلم أنّ شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزّه استغناؤه عن الناس**»[5].

## الحياة الطيّبة

قـال الله العظيم في مُحكم كتابه وجليل خطابـه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[6].

---

(1) محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك، ج 3، ص 47، حديث (7929 ) طبعة 1: دار الكتب العلمية.

(2) كثرة العَرَض: ما يصيبه الإنسان من حظوظ الدنيا وحطامها.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 74، ص 160.

(4) العلامة حسين بن محمد تقي النوري، مستدرك الوسائل، ج 11 ص 175، طبعة 1: مؤسسة آل البيت: نقلاً عن القطب الرواندي في لب الألباب، وأخرجه ابن ماجة في سننه برقم 4217، باب الورع والتقوى، طبعة: دار الفكر.

(5) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 1 ص 472، باب ثواب صلاة الليل.

(6) سورة النحل، الآية 97.

سُئل مولانا أمير المؤمنين عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، فقال: «**هي القناعة**»[1]، وروى الطبري في تفسيره عنه عليه السلام ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قال: «**القنوع**»[2].

وقال بعد أن ساق أقوال جملة من المفسّرين: وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: فلنُحيينه حياة طيبة بالقناعة، وذلك أنّ من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبه، ولم يعظم فيها نَصَبه ولم يتكدّر فيها عيشه باتباعه بغية ما فاته منها، وحرصه على ما لعلّه لا يُدركه فيها[3].

خذ القناعة من دنياك وارضى بها
لو لم يكن لك فيها إلا راحة البدنِ
وانظُر إلى من حوى الدنيا بأجمعِها
هل راحَ منها بغير الحنط والكفنِ[4].

## إيثار القناعة

إذن ما الذي نصنع كي لا نسقط في فخّ الحرص العظيم؟ يُجيبنا الإمام عليه السلام على هذا السؤال بالقول: «**ادْفَعْ عَظِيمَ الحِرْصِ بِإِيثَارِ القَنَاعَةِ**».

«ومن أجل محاربة الحرص يتعيّن على المرء أن يُفكّر ويسأل نفسه: إلى أيّ مدى أنا متيقّن من بقائي على قيد الحياة؟ إنّني أستطيع، في كلّ لحظة من لحظات عمري، أن أجني ما لا نفاد له ولا حدّ يحدّه من الربح والفائدة؛ فإن قلتُ: «سبحان الله» مرّة واحدة غُرست لي في الجنّة شجرة تبقى إلى أبد الآبدين. إذن فإنفاق لحظة واحدة في قول: «سبحان الله» له مثل هذا النفع الأبديّ.

فإن كانت الحال هذه فهل من اللائق أن يُمضي الإنسان هذا العمر القيّم في اقتناء اللباس الأجمل، وشراء البيت الأوسع، وجمع الدخل الأكثر، وما إلى ذلك؟! فقد يندم المرء ويعتصره الغمّ الشديد حتّى في هذه الدنيا على الأوقات التي أنفقها في جمع بعض الأموال عندما يُشاهد أنّه قد آن أوان رحيله عن هذه الدنيا وستقع أمواله بأيدي ورثته، ولن يُصيب منها شيئاً على الإطلاق، بل وقد تُصبح سبباً للنزاع والشقاق بين الورثة أيضاً.

---

(1) عز الدين عبد الحميد بن هبة الله ابن أبي الحديد المدائني، شرح نهج البلاغة، ج 19، ص 55، طبعة 1: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم.

(2) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج 17، ص 290، ط 1: مؤسسة الرسالة.

(3) م.ن. ص 291 – 292.

(4) من قصيدة تُنسب للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام مطلعها: لَيْسَ الغَريبُ غَريبَ الشام واليَمَنِ..

فما الذي يرمي إليه الإنسان من جمعه لكلّ هذه الثروة؟ وما الذي سيحصل إذا جمعها؟ إنّ غفلة الإنسان الحريص ورزوحه تحت وطأة أوهامه وتخيّلاته في أثناء جمع ثروته يبلغان من الشدّة بحيث إنّه يستمرّ في اللهث وراء جمع الثروة على الرغم من كونه غارقاً فيها»[1].

قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**خير الناس من أخرج الحرص من قلبه، وعصى هواه في طاعة ربّه**»[2]، ولا يكون ذلك إلا عبر إيثار القناعة لأنّها واقية من الذنوب التي تفتك بالقلب كالحسد، والغيبة، والنميمة، والكذب، وغيرها من الخصال الذميمة والآثام العظيمة؛ ذلك أنّ الحامل على الوقوع في كثير من تلك الرذائل غالبًا ما يكون استجلاب دنيا أو دفع نقصها، فمن قنع برزقه لا يحتاج إلى ذلك الإثم، ولا يُداخل قلبه حسد لإخوانه على ما أوتوا؛ لأنّه راضي قانع بما قسم له.

روى مولانا الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «**يا علي إنّ من اليقين أن لا تُرضي أحداً بسخط الله، ولا تحمد أحداً بما آتاك الله، ولا تذمّ أحداً على ما لم يؤتك الله، فإنّ الرزق لا يجرّه حرص حريص ولا تصرفه كراهة كاره، إنّ الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا، وجعل الهمّ والحزن في الشكّ والسخط**»[3].

قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**كيف يتخلّص من عناء الحرص من لم يصدق توكّله**»[4].

نعم إنّ الإنسان إذا لم يّتقِ الحرص ويدفعه بإيثار القناعة وصدق التوكّل على الله تعالى، فإنّه سيبقى حريصاً متطلّعاً إلى المزيد من متاع الحياة الدنيا حتّى يُدفن تحت التراب، فالتراب وحده هو الذي يقطع طموحات الإنسان في الحياة الدنيا، ويحدّ من حرصه فيها.

اللهم صلِّ على مُحمد وآل مُحمد وتفضّل على الأغنياء بالتواضع والسعة، وعلى الفقراء بالصبر والقناعة، وعلى الغزاة بالنصر والغلبة، وعلى الأسراء بالخلاص والراحة بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

---

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 12 آب، 2011م.

(2) التميمي الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ج 1، ص 241.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 74، ص 61.

(4) التميمي الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم ، ج 1، ص 197.

# الزهد وقصر الأمل

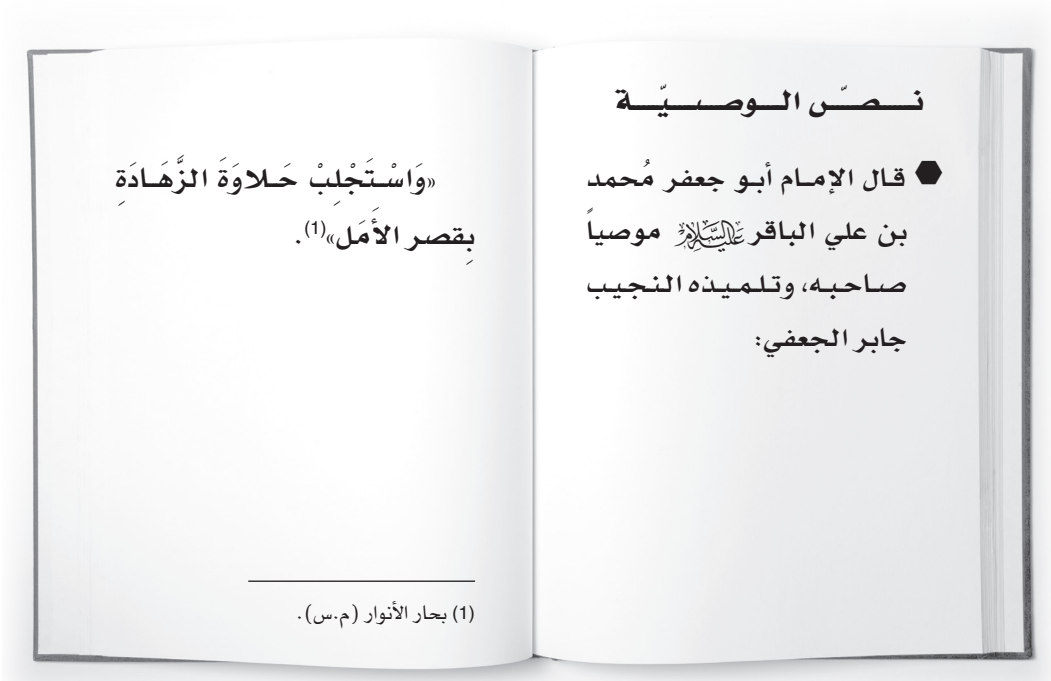

## نـــصّ الـــوصـــيّـــة

● قال الإمـام أبـو جعفر مُحمد بن علي الباقر عليه السلام موصياً صاحبه، وتلميذه النجيب جابر الجعفي:

«وَاسْتَجْلِبْ حَلاوَةَ الزَّهَادَةِ بِقصر الأَمَل»[1].

(1) بحار الأنوار (م.س).

## حقيقة الزهد ومنزلته

الزهـدُ فـي الدنيا، مقامٌ شريـفٌ من مقامات عبـاد الله السالكين مسالك الأنبيـاء والمرسلين صلـوات الله وسلامـه عليهـم، روي عن النبي الأكـرم ﷺ أنه قال: «**ما عُبد الله بشـيء أفضـل من الزهد في الدنيا**»[1]. وحقيقة الزهد هي الانصراف عن الشيء إلى ما هو خيرٌ منه، ولا بدّ أن يكون الانصـراف والرغبـةُ عن الشيء المحبَّبِ حتـى تُسمَّى الرغبة عن الشيء زهـداً، فالزاهد الصادق دائـم الأُنـس بالله تعالى، وتغلب عليـه الطاعة، بالإضافة إلـى أنّ العبد الزاهد يستـوي عنده ذامُّه ومادِحهُ.

والزاهد الحقّ لا يفرح بموجود، ولا يحزَن على مفقود، قال مولانا أميرُ المؤمنين عليه السلام: «**الزُّهْدُ كُلُّه بين كلمتين من القرآن: قال الله سبحانه، لكَيْلا تأْسَوْا على ما فاتكُم، ولا تَفْرحوا بما آتاكم، ومَنْ لم يأْسَ على الماضي، ولم يَفْرحْ بالآتي، فَقَدْ أخذ الزُّهْدَ بطرفَيْه**»[2].

وقـال عليه السلام: «**طوبى للراغبين في الآخرة الزاهدين في الدنيا، أولئك قوم اتخذوا مسـاجد الله بسـاطاً، وترابها فراشـاً، وماءها طهوراً، والقرآن شـعاراً، والدعاء دثاراً، ثم قرضوا من الدنيا تقريضا على منهاج عيسى بن مريم** عليه السلام»[3].

## قدوة الزاهدين

«نحـن نعلم أنّ الـذي يتصدّر قائمة زُهّاد العالم الإسلاميّ بعد رسول الله ﷺ هو أمير المؤمنين علـيّ عليه السلام. فلـو طالعنا قصّة زهد عليّ بـن أبي طالب عليه السلام ألف مرّة لوجدنـا فيها في كلّ مرّة مـا هـو جديد، فعن عبـد الله بن عبّاس قال: دخلـتُ على أمير المؤمنين عليه السلام بـذي قار وقد كان يقـود جيشـاً في حرب وهـو يخصف نعله، فقال لـي: «**ما قيمة هـذه النعـل؟ فقلـتُ: لا قيمة لها، فقـال** عليه السلام: **والله لهـي أحـبّ إليّ من إمرتكم إلاّ أن أُقيم حقّـاً أو أدفع باطلاً**»[4]. لكنّ نفس هذا

---

(1) العلامة النوري، مستدرك الوسائل، ج 12، ص 50.

(2) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 20، ص 87.

(3) الشيخ الصدوق مُحمد بن علي بن بابويه القمي، الخصال، ج 1، ص 337، طبعة 1: جماعة المدرسين، قم.

(4) ابـن أبـي الحديد، شرح نهـج البلاغة، ج 2، ص 185، من خطبة له عليه السلام عند خروجه لقتال أهل البصرة، ورواه جار الله الزمخشري في ربيع الأبرار، ج 5، ص 189، رقم 176، الطبعة 1: مؤسسة الأعلمي، بيروت.

الرجل الذي كان يُعدّ رمزاً للزهد في العالم قد حفر بيديه عدّة قنوات ماء، فقد كان يحمل المعول ويحفر الأرض حتّى إذا بلغ الماء أوقف البئر للفقراء، ولا زالت هناك في أطراف المدينة آبار تُسمّى «آبار عليّ عليه السلام»، وهي معروفة بين الناس، وكان يحمل نوى التمر على ظهره ويزرعها نواة نواة. حتّى إذا نبتت سقاها بنفسه حتّى تكبر وتصبح نخلات باسقات، فإن آتت ثمارها وقفها لفقراء الرعيّة، فليس هناك أدنى تناف بين أعمال عليّ عليه السلام هذه وزهده في أمور الدنيا وعزوفه عنها، لأنّه كان يقوم بذلك بدافع أنّ الله عزّ وجلّ يُحبّ هذا العمل.

فمن جملة ما كلّف سبحانه وتعالى به الإنسانَ هو تعمير الأرض وزراعتها. فالله لا يُحبّ أن تبقى الأرض بائرة وأن تجفّ أشجارها ويموت زرعها. فهو جلّ وعلا يقول في محكم كتابه العزيز: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1]؛ أي هو الذي خلقكم أيّها الناس من الأرض وأوكل إليكم عمارتها.

فقد كان عليّ عليه السلام يكدّ ويكدح فإذا أنتج عملُه وأثمر زرعُه وهبه إلى الفقراء من الرعيّة. لكنّنا في العادة نُسمّي أنفسنا زاهدين وقانعين عندما لا يسعنا فعل شيء أو حينما لا يكون لدينا المزاج والطاقة للقيام بعملٍ ما. إذن لا بدّ أن نحذر من خداع أنفسنا، فإنّ من سجايا ابن آدم وميّزاته هي قدرته حتّى على خداع نفسه. فقد يكون ملتفتاً إلى الحقيقة في بادئ الأمر لكنّه يتغافل عنها ثمّ - شيئاً فشيئاً - يصدّق الأمر،.. إذن فبذل الجهود والقيام بالنشاطات والعمل هي من الواجبات التي طالب الله تعالى الإنسان بها ويتعيّن على الأخير إنجازها»[2].

## حلاوة الزهادة

قد يستغرب بعض الناس عندما يرون طرفاً من أحوال الزاهدين أو يقرؤون عنها، وربما يتساءلون لماذا ينزل هؤلاء بأنفسهم كل هذا الشقاء والعناء مع أنّ الدنيا مبذولة للبر والفاجر؟! فتُطالعهم الإجابات الحكيمة التي ينطق بها الصادقون من أصحاب الزهد الحقّ، وهذه الإجابات عادة تنبأ عن الحال الذي قد عايشوه، فيستفيد من هذه الحِكم من يستفيد، ويطوي عنها كشحاً من لا يريد الانتفاع بها، ومن هذه الحِكم ينكشف لنا الكثير من أسرار الزهد والزهّاد، ولكن هناك سرّ لم يسبق لأحد من الزاهدين أن كشف عنه واستطاع أن يُلخّصه بكلمتين إلا إمامنا الزاهد الذاكر والخاشع الصابر أبو جعفر الباقر عليه السلام، والسر هو «**حلاوة الزهادة**».

---

(1) سورة هود، الآية 61.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 11 آب، 2011م

نعم إنّ للزهادة حلاوة يعرفها الخيّرين الفاضلين الزاهدين المرضيين، وهذه الحلاوة تُستجلب «**بقصر الأمل**»، فما هو قصر الأمل؟، وما هو طول الأمل؟ وكيف يُمكن الجمع بين مفهوم قِصَر الأمل، ومفهوم علوّ الهمّة المحبوب عند الله سبحانه وتعالى؟ وما هو مصداق كلّ منهما؟ هذه الأسئلة سنقدّم بتوفيق من الله تعالى توضيحاً موجزاً لها، وسنبدء الحديث عن طول الأمل لأنّ الأشياء تُعرف بأضدادها، وذلك من خلال مقارنتها بما يقابلها.

## مخاطر طول الأمل

إنّ في الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية لأبلغ بيان وأوضح تصوير لحقيقة هذه الحياة الدنيا، وما يجب أن يكون عليه حال المرء فيها من الإقبال على الله عزّ وجلّ، والأخذ بالنفس في دروب الصلاح والتقى، ومجانبة الشهوات والهوى، والحذر من الاغترار بالدنيا، والاستمرار في الحرص ومداومة الانكباب عليها مع كثرة الإعراض عن الآخرة، فإنّ هذا الداء هو داء طول الأمل؛ والذي يُعدّ كالسراب المبلقع طالما قطع الطريق على أهله، وحال بينهم وبين ما يشتهون، ولذلك يُحذّرنا الله عزّ وجلّ من هذا الداء، فيقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾[2]، وفي آية أخرى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[3]، وتتحدّث هذه الآية المباركة عن جدال المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، وتُبيّن أربعة عوامل لشقاء المنافقين الرابع منها هو: طول الأمل والاغترار بالأماني العريضة. وفي آية أخرى توضح الأثر السلبي للآمال الطويلة على حياة الإنسان. يقول الله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[4]. فتأمّل إلى أيّة درجة تجعل هذه الآمال الإنسان مشغولاً بنفسه ودنياه وغافلاً عن الله تعالى، وجملة (ذرهم) تهديد لهم، وبيان أنّه لا أمل في هداية هؤلاء، فكيف يتوقّع الهداية من طائفة من الناس هذا حالهم؟!

---

(1) سورة الحديد، الآية 16.

(2) سورة النجم، الآيتان 24 و 25.

(3) سورة الحديد، الآية 14.

(4) سورة الحجر، الآيات 1 – 3.

## الفرق بين طول الأمل وعلوّ الهمّة

«إنّ طول الأمل هو من الأمور المذمومة بشدّة في الأخلاق الإسلاميّة. فقد روي عن أمير المؤمنين علـيّ بـن أبي طالب عليه السلام: «**إنّ أخوف ما أخـاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى وطـول الأمل**»[1]، فهو عليه السلام يخاف على المسلمين من أمرين:

**أوّلهمـا:** الانصيـاع وراء أهواء النفس ونزواتها. لكنّه مـن الضروريّ التنويه هنا بأنّه ليس كلّ ما يطلـب القلـب فهو سيّئ ومحرّم؛ فقد يميل قلب المرء إلى شـيء هو ممّا يوجبه الشرع أيضاً. أمّـا مفهوم الهـوى المستعمَل في الأخلاق فهو ذلك الذي يُخالف الشرع والعقل؛ وهو أن يميل القلب إلى ما تهواه النفس وليس إلى ما يرضى به الله ويُحبّه، وهو أمر غاية في الخطورة.

**وثانيهمـا:** طول الأمـل. فهو صلى الله عليه وآله طبيب خبير بأمراض الأُمّة وعللها وعـارف بما يُمكن أن يفسد عليها دنياها وعقباها.

لكنّ المهمّ هنا هو أن نعرف: ما هو المقصود بطول الأمل؟

فهـل طالـب العلوم الدينيّة الذي يطمح في أن يُصبح في المستقبـل شخصيّة علميّة مرموقة هو من المبتلين بطول الأمل؟ أم إنّ الشخص الذي دخل مجال التصنيع ويحدوه أمل في أن يصبح يوماً مخترعاً بارزاً وصانعاً لا يُدانيه أحد في صناعته هو الآخر يشكو من صفة الأمل المذموم؟ فلولا تلك الآمـال والطموحات لخبت شعلة الحياة وسكن نشاطها ولم يرتق المجتمع سلّم السموّ والتكامل. ولو قنع التلميذ باجتياز المرحلة الابتدائيّة ولم يطمح في أن يصبح أستاذ جامعة، أو عالماً، أو فيلسوفاً، أو مرجعاً في التقليد فإنّه لن يهتمّ بالدرس والمذاكرة.

فالأمل في اللغة هو الرجاء والترقّب، وهو ليس بالأمر السيّئ. فالأمل والرجاء مفهومان متقاربان جدّاً في المعنى، ولولا وجودهما في حياة البشر لما أُنجزت أيّ فعّاليّة أو نشاط.

أمّـا مصطلح «الأمل» وفقاً للمفهـوم الأخلاقيّ فهو: عبارة عن الأماني العريضة التي تعيق المرء عن العمل بتكاليفه الشرعيّة والقيام بالأعمال القيّمة، وليس تلك الطموحات التي تحضّ المرء على بلـوغ الكمال ودرجـة القرب من الله عزّ وجلّ؛ كأن يتمنّى المرء أن يُصبـح أثرى أثرياء العالم أو أن يصبـح بطلاً رياضيّاً مشهـوراً يُشار إليه بالبنان. فأمثال تلك الأماني والآمال تقف حجر عثرة أمام قيام المرء بواجباته الدينيّة وهي لذلك تُصنَّف ضمن لائحة الآمال المذمومة.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 74، ص 420.

أمّا من وجهة نظر الأخلاق والثقافة الإسلاميّة فإنّ الآمال والطموحات التي تبلغ بالمرء درجات الكمـال والقـرب من الله عزّ وجلّ فهي تندرج فـي إطار «**علوّ الهمّة**»، فليس مـن الأماني السيّئة أن يطمـح الإنسـان في أن يترقّى في مضمار التقوى والعلـم والصناعة والإدارة ليتمكّن من خلال ذلك مـن إسـداء خدمة إلى شعبه وأُمّته، أو أن يحدوه الأمـل في أن يملك من الثروة ما يُمكّنه من الإنفاق علـى جميـع فقراء مدينته؛ هذا بشرط أن يتوفّر طريق معقول للوصول إلى تلك الآمال والطموحات. فـإن كنّـا نعلم أنّ مقـدار 99 بالمائة من هذه الآمـال هو غير قابل للتحقّق فلن تكـون طموحاتنا إلاّ ضربـاً مـن نسج الخيال، أمّا إذا كان ثمّـة سبيل معقول لتحقّقها على أرضـ الواقع وهدفٌ يرتضيه العقل والشرع من ورائها وأنّ احتمال تحقّقها يصل إلى نسبة خمسين بالمائة على الأقلّ فإنّها حينئذ من الآمال المعقولة التي لا غبار عليها»[1].

## فكّر بقِصَر أمَد الدنيا!

«إنّ أنجع السبل لمحاربة الآمال العريضة والطويلة هي أن يُفكّر المرء ويتأمّل بعواقب تلك الآمال وليسـأل نفسـه: ما الذي سيجلب تحقيق تلـك الأماني البعيدة والطموحات الكبيـرة لإنسان ليس له فـي هـذه الحياة الدنيا من المهلـة إلاّ القليل وليس هو فيها أكثر من مسافـر؟ فبدلاً من هذه الآمال المذمومـة فليفكّـر الإنسان بما يعود على آخرته بالفائدة؛ كأن يبـذل جهوداً أكبر على صعيد الأمور العباديّة، والسعي في طلب العلم وتربية الروح، وإعانة الفقراء، وتقديم الخدمات ذات النفع العامّ. ففي هذه الحالة يكون قد سعى وراء آمال لا تتعارض مع تكامل إنسانيّته..»[2].

## كيف نتعامل مع الدنيا؟

قـال النبي الأكرم مُحمد ﷺ: «**كُنْ في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل**»[3]. يعدّ هذا الحديث الشريـف أصل من الأصول التوجيهية في قصر الأمل، فـإنّ المؤمن لا ينبغي له أن يتّخذ الدنيا داراً يطمئـن فيهـا لأنّهـا دار هدنة أي: (دار بـلاغ وانقطاع)، ونحن علـى ظهر سفر والسيـر بنا سريع، وقـد رأينـا الليل والنهار والشمس والقمـر يبليان كلّ جديد، ويُقرّبان كلّ بعيـد، ويأتيان بكلّ موعود، فالواجـب إعداد الجهاز لبعد المجاز، وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأوصيائهم، وقال تعالى

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 11 آب، 2011م.

(2) م.ن.

(3) محمد بن الحسن الطوسي، الأمالي، ص 381، المجلس الثالث عشر، طبعة 1: دار الثقافة، قم.

حاكياً نداء مؤمن آل فرعون ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾[1].

وقال مولانا رسول الله ﷺ: «**إنّ الله يُعطي الدنيا من يُحبّ ويُبغض. وإذا أحبّ الله عبداً أعطاه الإيمان. ألا إنّ للدين أبناء وللدنيا أبناء. فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا. ألا إنّ الدنيا قد ارتحلت مولية والآخرة قد ارتحلت مقبلة ألا وإنّكم في يوم عمل ليس فيه حساب. ألا وإنّكم توشكون في يوم حساب وليس فيه عمل**»[2].

وخاطب مولانا الإمام علي بن الحسين عليه السلام أصحابه قائلاً: «**إخواني أوصيكم بدار الآخرة ولا أوصيكم بدار الدنيا، فإنّكم عليها حريصون، وبها متمسّكون، أما بلغكم ما قال عيسى ابن مريم عليه السلام للحواريين. قال لهم: «الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها**». وقال: «**أيّكم يبني على موج البحر داراً تلكم الدار الدنيا، فلا تتّخذوها قراراً**»[3]:

يا غافلاً عن العمل قد غرّه طول الأمل

الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

## مضرب المثل في قصر الأمل

عن أبي سعيد الخدري قال: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر؟ إنّ أسامة لطويل الأمل، والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي فظننت أنّ شفراهما يلتقيان حتى أقبض، ولا رفعت طرفي فظننت أنّي واضعه حتى أقبض، ولا لقمت لقمة فظننت أنّي أسيغها حتى أغص فيها من الموت**»، ثم قال: «**يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدّوا أنفسكم من الموتى؛ والذي نفسي بيده إنّ ما توعدون لآت وما انتم بمعجزين**»[4].

أخذ رسول الله ﷺ ثلاثة أعواد، فغرس إلى جنبه واحداً، ثم مشى قليلاً، فغرس آخر، ثم مشى قليلاً، فغرس آخر، ثم قال: «**هل تدرون ما هذا؟ هذا مثل ابن آدم، وأجله وأمله فنفسه تتوق إلى أمله، ويخترمه أجله دون أمله**»[5].

---

(1) سورة غافر، الآية 39.

(2) ورام بن أبي فراس مسعود بن عيسى، تبيه الخواطر ونزهة النواظر، ج1 ، ص 271، طبعة 1: مكتبة الفقيه.

(3) الشيخ المفيد أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري، الأمالي، ص 43، المجلس السادس، طبعة 1: قم.

(4) الشيخ محمد بن الفتال النيسابوري الشهيد، روضة الواعظين، ج 2، ص 238، والطبراني في مسند الشاميين.

(5) ورام بن أبي فراس، تبيه الخواطر، ج 1، ص 272.

ولقد نام ﷺ ذات يوم على حصير، فقام وقد أثّر في جنبه، فقالوا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً؟ فقال ﷺ: «**ما لي وللدُّنيا، ما أنا في الدنيا إلاّ كراكب استظلّ تحت شجرة ثمَّ راحَ وتركها**»[1].

والدنيا كما أخبر الله سبحانه لعب ولهو وزينة وتكاثر وتفاخر، وإنّ من عظيم الأسف أن يظلّ الكثيرون منّا في غفلة وتعامٍ عن ذلك؛ حتى يغلب عليهم طول الأمل، فيتولّد عنه الكسل عن الطاعة، والتسويف بالتوبة، والرغبة في الدنيا والنسيان للآخرة، والقسوة في القلب. ونحن نقرأ في دعاء كميل المروي عن مولانا أمير المؤمنين: «**وحَبَسَني عن نفعي بُعدُ آمالي**»[2].

## العاقل لا يغترّ بطول الأمل

ويظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى الأعمال الصالحة واغتنام أوقات العمر، فإنّ الأنفاس معدودة والأيام مقدّرة، وما فات لن يعود، وعلى الطريق عوائق كثيرة، ومن قصر أمله قلّ همّه، وتنوّر قلبه لأنّه إذا استحضر الموت اجتهد في الطاعة، وقد أرشدنا رسول الله ﷺ قائلاً: «**أكثروا من ذكر هادم اللذّات، فقيل: يا رسول الله، وما هادم اللذّات؟ قال ﷺ: الموت، فإنّ أكيس المؤمنين أكثرهم ذكراً للموت، وأحسنهم للموت استعداداً**»[3].

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**اتّقوا باطل الأمل، فربّ مستقبل يوم ليس بمستدبره، ومغبوط في أول ليلة قامت بواكيه في آخره**»[4].

والواقع أنّ أصحاب العقول لا يُمكن أن يغترّوا بطول الآمال، وهم يرون في كلّ يوم وفي كلّ صباح وفي كلّ مساء أجناس الناس الذين ينتقلون إلى الدار الآخرة، ممّن هم أقوى منهم أبداناً وأكثر أموالاً كلّ هؤلاء يدفنون جميعاً في المقابر، وكلّنا صائرون إلى ذلك المصير:

ومن لم يمت بالسيف مات
بغيره تعدّدت الأسباب والموت واحد

قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**من أيقن أنّه يُفارق الأحباب، ويسكن التراب ويواجه الحساب، ويستغني عمّا خلف، ويفتقر إلى ما قَدم، كان حريّاً بقصر الأمل وطول العمل**»[5].

---

(1) محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الصحيح، ج 4 ص 508، حديث 2377، باب 44، طبعة دار الفكر.
(2) الشيخ عباس القمي، مفاتيح الجنان، دعاء كميل.
(3) ابن الأشعث محمد بن محمد، الجعفريات، ص 199، باب ذكر الموت، ط 1، مكتبة لنينوى الحديثة، طهران.
(4) الآمدي التميمي، غرر الحكم و درر الكلم، الفصل السابع «الأماني» ( ذم الأمل )، رقم: 7231.
(5) محمد بن علي الكراجكي، كنز الفوائد، ج 1، ص 351، طبعة 1: دار الذخائر، قم.

## الزهد وقصر الأمل

قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**رحم الله أمرأً قصّر الأمل، وبادر الأجل، واغتنم المهل، وتزوّد من العمل**»[1].

وقال سلمان المحمدي رضي الله عنه: «ثلاث أعجبتني حتّى أضحكتني: مؤمّل الدّنيا والموت يطلبه، وغافل لا يغفل عنه، وضاحك ملء فيه لا يدري أمسخط ربّه أو مرضيه»[2].

ودخل رجل على أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، فجعل يُقلّب بصره في بيته، فقال: «يا أبا ذر! أين متاعكم؟ فقال أبو ذر: إنّ لنا بيتاً نوجّه إليه صالح متاعنا، فقال الرجل: إنّه لا بدّ لك من متاع ما دمت هاهنا، فقال أبو ذر: إنّ صاحب المنزل لا يدعنا فيه»[3]، فأبو ذر غريب في الدنيا يمشي وحده؛ ويموت وحده، ويبعث وحده، وهو من الجنّة، وإلى الجنّة:

كم منزل للمرء يألفه الفتى
وحنينه أبداً لأول منزل.

وكان أُويس بن عامر القرني رضوان الله عليه إذا قيل له: كيف الزمان عليك؟ قال: «كيف الزمان على رجل إن أصبح ظنّ أنّه لا يُمسي، وإن أمسى ظنّ أنّه لا يُصبح، فمُبَشَّر بالجنّة أو النار يا أخا مراد إنّ الموت وذكره لم يترك لمؤمن فرحاً..»[4].

يا ذا المؤمِّل آمالاً وإن بَعُدتْ
منه ويزعُم أن يحظى بأقصاها
أنَّى تفوز بما ترجوه ويكَ وما
أصبحت في ثقة من نَيْل أدناها[5]

أعاذنا الله وإيّاكم من طول الأمل، فإنّه يمنع خير العمل، ويُنسي المرء التفكّر في الأجل، وجعلنا الله وإيّاكم ممّن يُقصّرون الأمل ويستجلبون به حلاوة الزهادة، وصلى الله على سيدنا مُحمد وآله الطاهرين.

---

(1) الآمدي التميمي، غرر الحكم و درر الكلم، الفصل الثالث، آثار الاعتقاد بالمعاد، رقم: 2734 .
(2) أحمد بن حنبل، الزهد، ج 1، ص 153، طبعة دار الريان للتراث، القاهرة.
(3) أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، ج 7، ص 378، رقم ( 10651 )، طبعة 1: دار الكتب العلمية.
(4) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ج 2، ص 83، طبعة 4: دار الكتاب العربي.
(5) محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لإحكام القرآن، ج 10، ص 3، الطبعة 2: دار أحياء التراث.

# الطمع وبعد الهمّة

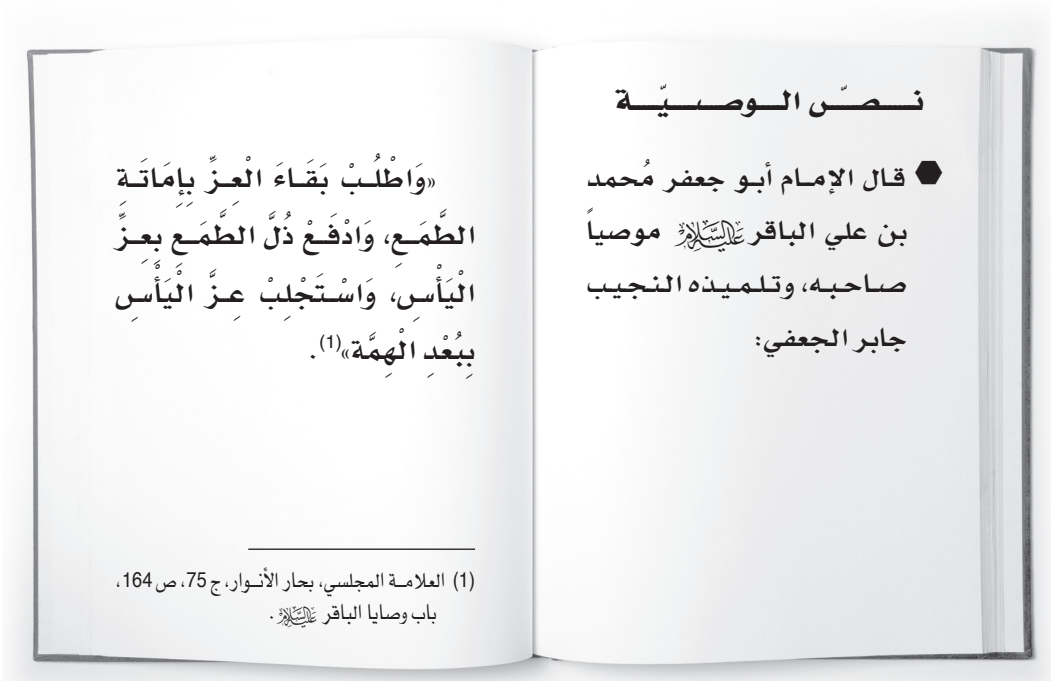

## نـــصّ الـــوصـــيّـــة

- قال الإمام أبو جعفر مُحمد بن علي الباقر عليه السلام موصياً صاحبه، وتلميذه النجيب جابر الجعفي:

«وَاطْلُبْ بَقَاءَ الْعِزِّ بِإِمَاتَةِ الطَّمَعِ، وَادْفَعْ ذُلَّ الطَّمَعِ بِعِزِّ الْيَأْسِ، وَاسْتَجْلِبْ عِزَّ الْيَأْسِ بِبُعْدِ الْهِمَّةِ»[1].

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 164، باب وصايا الباقر عليه السلام.

## المؤمن عزيز بعزّة الله

إنّ العزّة والكرامة من أبرز الخلال التي نادى بها الإسلام العظيم، وغرسها في نفوس المسلمين، وتعهَّد نماءها بما شرعه من عقائد، وسنّه من أحكام، ووجَّه به من آداب؛ فالمؤمن عزيزٌ بما أعزّه الله به من إيمان، وبما منحه من كرامة. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. كما أنّ المؤمن مُؤَيَّدٌ منصور، مكْفِيٌّ ومدفوعٌ عنه، ولو اجتمع عليه من بأقطار الأرض؛ إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته ظاهرًا وباطنًا، وقد خاطَبَ الله المؤمنين قائلاً: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

فالمؤمن عزيز بعزّة الله حتى لو كان فقيراً معدماً من المال، ولو طوى شهراً كاملاً جوعاً تراه لا يذلّ لأحد إلا لله سبحانه لأنّه علِم وتيقّن أنّ النافع الضار هو الله، وأنّ الذي بيده ملكوت كلّ شيء هو الله تعالى، وأنّه لا شيء يحدث إلا بأمر الله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[3]، فالخلق خلقه، والأمر أمره، فهل بقي لأحد شيء بعد ذلك؟

روى مولانا الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه قال: قال علي بن الحسين عليهم السلام: «**الرجل كلّ الرجل نعْمَ الرجل هو الذي جعل هواه تبعاً لأمر الله، وقواه مبذولة في رضاء الله، يرى الذلّ مع الحقّ أقرب إلى عزّ الأبد من العزّ في الباطل**»[4].

وقال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**إنّ الله تبارك وتعالى فوّض إلى المؤمن أموره كلّها، ولم يُفوّض إليه أن يذلّ نفسه ألم ترَ قول الله سبحانه وتعالى هاهنا ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾**»[5].

---

(1) سورة المنافقون، الآية 8.

(2) سورة آل عمران، الآية 139.

(3) سورة الأعراف، الآية 54.

(4) أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، الأحتجاج، ج 2، ص 321، الطبعة 1: دار المرتضى، مشهد.

(5) ثقة الإسلام الشيخ محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج 5، ص 63، الطبعة 4: دار الكتب الإسلامية، طهران.

وللمحافظة على هذا العزّ الذي يُبقي المؤمن منيعاً رفيع القدر بسبب دينه، فلا يحتاج في عزّه وكرامته وغلبته إلى أن يميل إلى أحد ويأنس به، لأنّ عزّته بالدين لا بالعشائر والتابعين - من أجل هذا - يُطالعنا مولانا الإمام الباقر عليه السلام بوصيّته الخالدة: «**وَاطْلُبْ بَقَاءَ الْعِزِّ بِإِمَاتَةِ الطَّمَعِ، وَادْفَعْ ذُلَّ الطَّمَعِ بِعِزِّ الْيَأْسِ، وَاسْتَجْلِبْ عِزَّ الْيَأْسِ بِبُعْدِ الْهِمَّةِ**».

فطلب بقاء العزّ يكون بإماتة الطمع، وإلا فالمآل إلى الذلّ، ويُدفع ذلّ الطمع بعزّ اليأس، وفيما يلي سنتعرّف على آليات الحلول التي وجّه إليها إمامنا الباقر، ولكنّنا سنتعرّض أولاً للإجابة على السؤال التّالي: من أين ينشأ هذا الطمع المذلّ؟

## منشأ الطمع

«أمّا الطمع فإنّه يتحقّق عندما يبدأ الإنسان بالتفكير بالتصرّف في أموال غيره والانتفاع من المال الجاهز. والشيطان يوسوس لابن آدم ليمدّ يده إلى أموال الآخرين عبر طرق شتّى كالتملّق لأرباب الثروة وأصحاب المناصب والجاه أملاً في الظفر بشيء من دون مقابل. والأسوأ من ذلك هو الاستحواذ على ما في حوزة الآخرين بالخداع والحيلة.

هذه الفكرة أساساً إنّما تنشأ عندما يُحاول المرء الظفر باللذائذ المادّية من دون جهد وعناء، وهذا هو قوام مفهوم الطمع، فالطمع هو: رغبة المرء في زيادة ممتلكاته المادّية (وهو ضمن هذا الحدّ لا يخرج عن نطاق الحرص) بيد أنّ هذه الزيادة تتمّ عبر الاستحواذ على ممتلكات الآخرين، ومن هنا فإنّ قبح الطمع مضاعف؛ إذن فالطمع هو: شكل من أشكال الحرص؛ لكنّه حرص يحاول المتّصف به جني الربح والفائدة من أموال الآخرين، وهذا هو منشأ الطمع»[1].

## الطمع إذلال لفطرة الإنسان

«مضافاً إلى أنّ الطمع ينطوي على رذيلتين (هما رذيلة الحرص ورذيلة التصرّف بمال الآخرين ظلماً)، فإنّ له عيباً باطنيّاً، وهو أنّ الشخص الطمّاع يُدرك اتّصافه بهذه الرذيلة في بادئ الأمر لكنّه يعتادُ عليها شيئاً فشيئاً فيفقد، نتيجةً لهذه العادة، واحدة من مطالبات الفطرة البشريّة.

ولتوضيح هذا المعنى لا بدّ من مقدّمة؛ فإنّ للإنسان منذ ولادته حاجات متعدّدة وهي تقع ضمن أقسام مختلفة فيما بينها. فقسم منها حاجات جسمانيّة؛ كالحاجة إلى الطعام، والمسكن، والزوج،

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 12 آب، 2011 م.

وما إلى ذلك. والقسم الثاني هي الحاجات النفسيّة وهي ألطف من سابقتها؛ كالحاجة إلى أن يكون محترمـاً في المجتمع وغير محتقَر عند الناس. وهذه الحاجة تظهر لدى الأطفال مبكّراً؛ فالأطفال يحبّـون أن يكونوا أعزّاء لدى والديهم؛ ومن هنا فـإنّ إعراض الأبوين عنهم هو أشدّ إيلاماً لهم من العقاب الجسديّ.

ومـن الحاجات الأخـرى هي حبّ الاستقلال الذي يُبكّر في الظهور عنـد الأطفال أيضاً. فعندما يبـدأ الطفـل بالخطو مثلاً فهو يحبّ أن يخطو لوحده وأن يفلت يده من قبضة أبيه أو أُمّه عند السير فـي الطريق. فالطفل يشعر بالحاجة إلى الاستقلال والوقوف على قدميه بنفسه. وهذه صفة حسنة للغاية.

إذن فمن المسلّمات أنّ للمرء حاجات ومطالبات أخرى غير تلك الفسلجيّة والبدنيّة. فمن جملة الحاجات الروحيّة للإنسان هي حبّه الوقوف على قدميه والاستقلال عن الآخرين. أمّا صفة «الطمع» الذميمـة فإنّها تكـون في مقابل هذه الحالة تماماً؛ فالإنسان المبتلـى بالطمع يسعى لتأمين ما ليس بحوزته من أموال الآخرين حتّى وإن اضطرّه ذلك إلى السرقة أو التحايل.

وهـذا يـدلّ على أنّ مثل هذا الإنسان يُرجّح لذّته الجسديّة علـى لذّة الاستقلال والعزّة والكرامة الذاتيّـة وهـو مستعدّ لتحمّـل ذلّ الحاجة إلـى الآخرين والتبعيّة لهـم في سبيل الازديـاد في المال والثـروة، وهـو – في هذه الحالة – إنّما يهبط بفهمه وإدراكه إلى مستوى هو أدنى من مستوى الطفل الـذي ليس له من العمر أكثر من سنتيـن أو ثلاث سنوات، لأنّ الأخير يُدرك حاجته إلى الاستقلال، ويحظى في المقابل بما يتعلّق بطبيعته الحيوانيّة، وهذا هو ضرب من ضروب الذلّة»[1].

## أَمِت الطمع كي تعيش عزيزاً

«فالطمـع لا يكون بمعزل عن الذلّ أبداً. ومن هنا يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**واطلب بقاء العزّ بإماتـة الطمـع**». فأنـت أساساً طالبٌ للعزّ والغنـى، فإذا رغبت بالإبقاء على عـزّك فعليك أن تقتل الطمع، وإن لم تفعل ذلك أمسيت ذليلاً لهذا المطلب الشيطانيّ.

لكنّ السؤال هنا هو: كيف يُمكن إزهاق روح الطمع؟

يقـول الإمـام عليه السلام جواباً على ذلـك: «**وادفع ذلّ الطمع بعـزّ اليأس**»؛ فعليـك أن تُلقّن نفسك وتربّيها على اليأس ممّا في أيدي الناس. فالذي يتعوّد على أخذ مساعدة الآخرين، بما فيهم الأبوان

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 12 آب ، 2011 م.

والأخ والأخت والجار... الخ فسوف يتعوّد بالتدريج على جني النفع من الآخرين والتطفّل عليهم، وهو بذلك يسلب نفسه استقلاله وكرامته ويشعر بالحقارة ويُفرّط بالثقة بنفسه، والشخص العديم الثقة بنفسه سوف يُبتلَى بأصناف العُقَد والأمراض النفسيّة وهو لا يرى لنفسه هويّة أو قيمة.

نُقل عن أحوال المرحوم العلاّمة الطباطبائيّ (رضوان الله تعالى عليه) أنّه قال: «منذ أن بدأتُ بطلب العلوم الدينيّة بشكل جدّي حاولت أن لا أطرح ما يعرض لي في درسي من معضلات علميّة على أستاذي وأن أجتهد في حلّها بنفسي عبر التأمّل والمطالعة. فالذي يُكثر من الاستفسار من الآخرين لحلّ ما يعترضه من المشاكل سيُصاب بخمول الذهن. لكنّه إذا عزم على حلّ إشكالاته بنفسه مهما أمكن فسيُصبح ذهنه وقّاداً وخلاّقاً ودقيقاً. فإنّ من جملة آفّات الحياة المعتمدة على المكائن والدراسة الآليّة هي تقويض قدرة الذهن. فعلى المدرّسين والمعلّمين أن يُحفّزوا في طلاّبهم روح الاعتماد على النفس والثقة بها، أو أن يقوّوا - على الأقلّ - اعتمادهم على أنفسهم جنباً إلى جنب مع الإفادة من التقنية الحديثة والوسائل التعليميّة المساعدة....

على أيّة حال فإنّ من بين حاجاتنا الفطريّة هو إحساسنا بالعزّة وإنّ الطمع هو عدوّ هذا الإحساس. فالطمع يُشعر الإنسان دائماً بتبعيّته للآخرين وتطفّله عليهم ويمحق في نفسه العزّ والكرامة. يقول الإمام عليه السلام هنا يتعيّن عليك - من أجل إبادة الطمع وإماتته - أن تُلقّن نفسك اليأس من مساعدة الآخرين في جميع أعمالك وأفعالك. ولا ريب أنّ اكتساب هذه الصفة يحتاج إلى تمرين عمليّ أيضاً...

فالطمع هو ذلٌّ حاضر ومدفوع الثمن نقداً وإن كان في مال الوالد. إذن فمن أجل أن ننجو من ذلّ الطمع علينا أن نُلقّن أنفسنا بأن لا نقبل المساعدة من أحد، أو أن نيأس من مساعدة الآخرين لنا وعلينا أن نسعى بأنفسنا لتولّي أُمورنا وإنجاز أعمالنا الشخصيّة. بهذه الصورة سننجو من ذلّ الطمع ونقف على أرجلنا ويُصبح كلّ واحد منّا سيّداً على نفسه؛ «**وادفع ذلّ الطمع بعزّ اليأس**». فالله سبحانه وتعالى قد أودع في كيان المرء الشعورَ بالاستقلال كي يَثبُت ويقف على قدميه بنفسه»[1].

## اليأس عمّا في أيدي الناس

وفي مقابل الطمع يأتي الاستغناء عن الناس واليأس عمّا في أيديهم، والذي يُعدّ من الفضائل الموجبة لتقرّب العبد إلى الله تعالى، ويؤدّي بالإنسان إلَى المراتب العالية، ففي الخبر الوارد

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 12 آب، 2011 م.

عـن إمامنـا الصادق عليه السلام أنّ لقمان الحكيم عليه السلام قال لابنه وهـو يعظه: «**إن أردت أن تجمع عزّ الدنيا فاقطع طمعك ممّا في أيدي الناس، فإنّما بلغ الأنبياء والصدّيقون ما بلغوا بقطع طمعهم**»[1].

وقال سليل بيت التقى صاحب هذه الوصية التي نتشرّف بخدمتها مولانا الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام : «**اليأس ممّا في أيدي الناس عزّ المؤمن في دينه..**»[2].

واليأس يحصل بقطع الطمع عمّا في أيدي الناس، لأنّ الطمع شعبةٌ من شعب حبّ الدنيا، ومن الرذائل المهلكة التي تُسيء إلى شرف المسلم ومروءته. ورد عن إمامنا الرضا عليه السلام أنّه قال: «**اليأس ممّا في أيدي الناس عزّ المؤمن في دينه، ومروّته في نفسه، وشرفه في دنياه، وعظمته في أعين الناس، وجلالته في عشيرته، ومهابته عند عياله، وهو أغنى الناس عند نفسه، وعند جميع الناس**»[3].

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «**قد يكون اليأس إدراكاً، والطمع هلاكاً**»[4].

ذلك لأنّ الطامع يكون وثوقه بالناس واعتماده عليهم أكثر من وثوقه بالله تعالى، إذ لو كان اعتماده على الله أكثر من اعتماده على الناس لما نظر إليهم، بل لم يطمع إلا بما عند الله سبحانه، وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «**أول الإخلاص اليأس ممّا في أيدي الناس**»[5].

## العزّ مع اليأس

جاء رجل إلى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال يا نبيّ الله حدّثني حديثاً، واجعله موجزاً لعلّي أعيه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «**صلِّ صلاة مودِّع كأنّك لا تُصلّ بعدها، وايأس ممّا في أيدي الناس تعش غنيّاً، وإيّاك وما يُعتذر منه**»[6].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «**أيّها الناس إنّ الطمع فقر، واليأس غنى، والقناعة راحة..**»[7].

---

(1) العلامة النوري، مستدرك الوسائل، ج 12، ص 69.

(2) الكليني، الكافي، ج 2، ص 149، باب الاستغناء عن الناس.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 72، ص 108.

(4) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 4، ص 391، الطبعة 2: النشر الإسلامي، قم.

(5) الآمدي التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، الفصل السابع في الإخلاص، رقم 3918.

(6) محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، مسند الشهاب، ج 2، ص 93، حديث 952، الطبعة 2: مؤسسة الرسالة

(7) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 74، ص 183.

اليأس عمَّا بأيدي الناس مكرمةٌ
والرِّزق يصحب والأرزاق تتَّسع
لا تجزعنَّ على ما فات مطلبه
ها قد جزعت فماذا ينفع الجزع
إنَّ السَّعادة يأسٌ إن ظفرت به
بعض المراد وإنَّ الشَّقوة الطمع

ومن مواعظ مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «**لا يزال العزّ قلقاً حتى يأتي داراً قد استشعر أهلها اليأس ممّا في أيدي الناس فيوطنها**»[1].

وعليه، فاليأس ممّا في أيدي الناس هو: أعظم أنواع التحرّر من رقّ عبوديّتهم، فأمّا إذا طمع المرء فيما عندهم، فإنّ قلبه يتعلّق بهم، ويفتقر إليهم.

العبد حرّ ما قنع
والحرّ عبد ما طمع

وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه؛ فإنّ الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه، ولا يطمع فيه، ولا يبقى قلبه فقيراً إليه، ولا إلى من يفعله، وأمّا إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه، فإنّ قلبه يتعلّق به فيصير فقيراً إلى حصوله، وإلى من يظنّ أنّه سبب في حصوله. وقد قال أمير المؤمنين وإمام المتّقين عليه السلام: «**مرارة اليأس خير من التضرّع إلى الناس**»[2].

وقال عليه السلام: «**امنن على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمّن شئت تكن نظيره**»[3].

وقال مولانا الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، فيكون افتقارك إليهم في لين كلامك وحسن بشرك، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزّك**»[4].

(1) بحار الانوار، ج 75، ص 206.
(2) الآمدي التميمي، غرر الحكم و درر الكلم، الفصل التاسع في اليأس عما في أيدي الناس، رقم 9255.
(3) الشيخ الصدوق، الخصال، ج 1، ص 220، الطبعة 1: جماعة المدرسين، قم.
(4) الكليني، الكافي، ج 2، ص 149.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربّه شيئاً إلا أعطاه، فليأيس من الناس كلّهم، ولا يكون له رجاء إلا من عند الله، فإذا علم الله ذلك من قلبه لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه**»[1]، فطريق العزّ ودوامه يكون بالتوجّه إلى الله، وأن نلحّ عليه بالدعاء والشكوى، لأنّ الشكوى إلى الله تُشعرك بالقوّة والسعادة، وأنّك تأوي إلى ركنٍ شديد، أمّا الشكوى إلى الناس، والنظر إلى ما في أيدي الناس، فيُشعرك بالضعف والذلّ، والإهانة والتبعية، وقد قال مولانا الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في فصل خطابه: «**العزّ مع اليأس**»[2].

## علوّ الهمّة طريق للعزّة

«إذن ماذا نصنع كي نُقوّي حالة اليأس من الآخرين في نفوسنا؛ أي أن نبني أمرنا على أنّه ما من أحد يمدّ إلينا يد العون وعلينا أن نؤمّن ما نحتاجه بأنفسنا؟ يقول إمامنا الباقر عليه السلام في هذا الصدد: «**واستجلب عزّ اليأس ببعد الهمّة**». أي: «إذا أردت أن تشعر بعدم الحاجة إلى الآخرين، فعليك أن تتّصف بعلوّ الهمّة! فإنّ لعلوّ الهمّة مكانة رفيعة في الثقافة الإسلاميّة والله جلّ وعلا يُحبّ أصحاب الهمم العالية، فالإنسان ذو الهمّة العالية يحسّ بالعار من مساعدة الآخرين له، أمّا الإنسان ذو الهمّة المنحطّة فلا يُفكّر إلاّ بإشباع بطنه وتلبية غرائزه الحيوانيّة، وهو على استعداد لتحقير نفسه في سبيلها. لكنّ الشرف الإنسانيّ لا ينسجم مع هذه الروح المتمثّلة بدناءة الهمّة، فما بالك بالشرف الإسلاميّ»[3].

## الجمع بين الثقة بالنفس والتوكّل على الله

«ولا بدّ من أجل إتمام البحث من ذكر هذه الملاحظة، وهي أنّ ما طُرح لحدّ الآن إنّما يتّصل بالعلاقات التي تربط الناس ببعضهم والتي غالباً ما تظهر نتائجها في الأمور الدنيويّة والمادّية، فالطمّاع إنّما يطمع بمال الآخرين، والحريص إنّما يحرص على جمع المال أو ما يشبهه، وإذا يئس فإنّما ييأس من معونة الناس. إذن فنحن - في جوٍّ كهذا - إنّما نقيس العلاقات التي تربط بين مختلف البشر، وإنّ الحديث عن كون «الثقة بالنفس» محبّذة عند علماء النفس، وهو ما يُعبَّر عنه في علم الأخلاق بـ «عزّة النفس» إنّما يتمّ ضمن هذا النطاق.

---

(1) الكافي، ج 2، ص 148.

(2) الآمدي التميمي، غرر الحكم و درر الكلم، الفصل التاسع في اليأس عما في أيدي الناس، رقم 9240.

(3) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 12 آب، 2011 م.

أمّـا الأخلاق الإسلاميّة فهـي تتخطّى هذه الحدود؛ إذ لا بدّ لها أن تسيـر باتّجاه التوحيد وأن لا تبقـى محصورة ضمن هذه القيود. إذن ففي حيّـز الأخلاق التوحيديّة يتعيّن القول: على الرغم من أنّ الإنسان ينبغي أن لا يشعر بالحاجة إلى غيره من البشر، لكن يتحتّم عليه أن يعتقد بأنّ كلّ وجوده هو بحاجة إلى الله تعالى.

ففي ذات الوقت الذي يحسّ المؤمن بعدم الاعتماد على الآخرين فإنّ كلّ توكّله يكون على الله عزّ وجـلّ، فالثقة بالنفس والاعتماد عليها هو عملـة ذات وجهين؛ وجه سلبيّ ووجه إيجابيّ، فثقة المرء بنفسـه تكون مطلوبة عندما لا يكـون متّكلاً على الآخرين، والسؤال هنا هـو: إذن فبأيّ شخص نثق وعلى مَن نتّكل؟ والجواب على هذا السؤال بما ينسجم مع الأخلاق العامّة هو: كن واثقاً بنفسك.

أمّـا وفقـاً للأخلاق التوحيديّة فيُقال: ينبغـي أن لا يكون اعتمادك إلاّ علـى الله وأن لا تنظر إلى نفسـك علـى الإطلاق؛ بل إنّ أولياء الله يَصِلون إلى درجـة لا يعتمدون فيها حتّى على الملائكة، كما حصل في قصّة إبراهيم الخليل عليه السلام. فعندما أرادوا قذفه في النار أتاه جبرئيل عليه السلام فقال له: «**هل لك من حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا**»[1]. فإنّ لي حاجة لكنّ حاجتي إلى الله فحسب، ومن هنا فقد وصل إبراهيم عليه السلام بعد مقامي النبوّة والرسالة إلى مقام «الخُلّة» فأصبح خليل الله سبحانه.

إذن علينا أن نحفظ مثل هذه الروحيّة في أنفسنا وهي أنّ المرء ليس فقط لا ينبغي أن يتّكل على غيره من البشر، بل عليه أن لا يعتمد حتّى على جبرئيل والملائكة، وليقل: إنّني عبدٌ ولي ربّ، ولا يُلبّي حاجتي إلاّ ربّي. فما الذي بمقدور الآخرين صنعه؟!

إذن لا ينبغـي أن نخلـط بين مبحث الثقة بالنفس والاعتماد عليها المطروح في علم النفس وبين التـوكّل على الله تعالى، فنطاق هذيـن الموضوعين مختلف؛ ذلك أنّ قضيّة الثقة بالنفس محصورة فـي حـدود القيم الإنسانيّة العامّـة، لكن عندما يدور الكلام حول القيـم التوحيديّة، فلا بدّ أن يحُلّ التوكّل على الله والاعتماد عليه محلّ الثقة بالنفس»[2].

جعلنـا الله وإيّاكـم ممّن يستمعون القـول فيتّبعون أحسنـه، وصلى الله على سيدنـا مُحمد وآله الطاهرين.

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 11، ص 62.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 12 آب، 2011 م.

# العجب ومعرفة النفس

## نـــصّ الــوصــيّــة

- قال الإمـام أبـو جعفر مُحمد بن علي الباقر عليه السلام موصياً صاحبه، وتلميذه النجيب جابر الجعفي

«وَسُدَّ سَبِيلَ العُجْبِ بِمَعرِفَةِ النَّفس»[1].

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص164، باب وصايا الباقر عليه السلام.

## المنهج التربوي الربّاني

ربّانيّة المنهج التربوي عند النبي الأكرم ﷺ والأئمة الهداة المهديّين من أهل بيته الطاهرين عليهم السلام عنوانٌ مضيءٌ وشامخٌ في حياة الإنسانية وحركة التاريخ والمسيرة الإنسانية، فهم أعلام الهدى وقدوة المتّقين، عُرفوا بالعلم والحكمة والحلم وسائر صفات الكمال في الشخصية الإسلامية، فما يصدر منهم في الحقيقة صادرٌ عن ربّهم، ولهذا صحّ القول بأنّ منهجهم ربّانيّ، كما تدلّ على ذلك أيضاً أحاديثهم وأفعالهم وأحوالهم الشريفة.

فهذا مولانا أمير المؤمنين عليه السلام يقول في وصيّته لكُمَيل بن زياد النخعي: «**إنّ رسول الله ﷺ أدّبه الله عزّ وجلّ، وهو أدّبني، وأنا أؤدّب المؤمنين، وأورث الأدب المكرمين**»[1]. وقال الإمام أبو عبد الله جعفر بن الصادق عليه السلام: «**إنّا والله ما نقول بأهوائنا، ولا نقول برأينا، ولا نقول إلاّ ما قال ربّنا، أصول عندنا، نكنزها، كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضّتهم**»[2].

وكان النبيُّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام يتّخذون من العبرة والموعظة وسيلة تربوية لتنوير العقل والقلب، إذ بهما يعي الإنسان حركة الحياة من حيث الشدّة والرخاء وأسباب التقدّم والتأخّر، ويُقلع عن الممارسات المنحرفة، ويتوجّه لإصلاح نفسه لتسمو وتتكامل، وقد أثبت هذا المنهج التربوي قدرته على بناء الإنسان بناءً متكاملاً، فقد تخرّج على هذا المنهج آلاف الشخصيات التي كانت قمةً في السُّمو الروحي والتكامل النفسي والسلوكي، وقدوة لبني الإنسان، لعمل هذه الشخصيات بعد معرفتها بأنّ المنهج ربّانيّ النشأة والمصدر، وعلى الرغم من ابتعاد أكثر المسلمين عن هذا المنهج التربوي إلا أنّ آثاره بقيت حاكمة على كثيرٍ من المواقف والممارسات والصفحات المضيئة للتاريخ الإنساني.

## الداء الدفين

قال الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾[3].

---

(1) أبو جعفر محمد بن أبي القاسم الطبري الآملي، بشارة المصطفى، ص25، ط2: المكتبة الحيدرية، النجف.

(2) أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ، بصائر الدرجات، ج1، ص301، باب 14، طبعة 2: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم.

(3) سورة فاطر، الآية 8.

قال مولانا الإمام الكاظم عليه السلام: «**العجب درجات منها أن يُزيّن للعبد سوءُ عمله، فيراه حسناً فيعجبه ويحسب أنّه يُحسن صنعاً، ومنها أن يؤمن العبد بربّه، فيمنّ على الله عزّ وجلّ ولله عليه فيه المنّ**»[1].

العجب هو ابتهاج الإنسان وسروره بتصوّر الكمال في نفسه وإعجابه بأعماله، والإدلال بها بظنّ تماميّتها وخلوصها، وحسبان نفسه خارجاً عن حدّ التقصير، لا السرور بصدور العمل مع التواضع لله والشكر له على التوفيق، والخوف من عدم تمامه وعدم قبوله، فإنّه لا بأس به، بل هو حسن.

والعجب من أخبث الأفكار السلبية السيّئة سواء أكان حالة غير راسخة في النفس، أو إذا تغلغلت في النفس وترسّخت فيها وأضحت بالمداومة من ملكاتها، وبذلك يكون العُجب من أعظم المهلكات ومن أشدّ الحجب بين القلب والربّ تبارك وتعالى، ولذلك إنّ المعجب بنفسه مبغوض عند الله، مسلوب التوفيق من ناحية الله لحسبان نفسه غنيّاً عن إنعامه وإفضاله . قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في وصيّته لأمير المؤمنين عليه السلام: «**ولا وَحْدَةَ أَوْحَشَ من العُجْبِ**»[2].

وقال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**العجب داء دفين**»[3] . وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**لا جهل أضرّ من العُجب**»[4]. وقال عليه السلام: «**إنّ الله عزّ وجلّ علم أنّ الذنب خير للمؤمن من العجب، لولا ذلك ما ابتلى الله مؤمناً بذنب أبداً**»[5]. وفي شرح هذا الحديث قال الإمام الخميني قدس سره: «إنّ العجب أشدّ من الذنب في حضرة الله تعالى، ولهذا قد يبتلي الله سبحانه المؤمن بالمعصية لكي يُصبح آمنا من العجب، وكذلك الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يعتبر العجب من المهلكات»[6].

## معنى العُجْب لغةً واصطلاحًا

### 1. لغة

العُجْب بالضم: الزَّهْوُ والكِبْرُ، ورجلٌ مُعْجَبٌ: مَزْهُوٌّ بِمَا يكون منه حسنًا أَو قبيحًا. وقيل: المعْجَبُ، الإِنسانُ المعْجَب بنفسه أَو بِالشَّيْءِ، وقد أُعْجِبَ فلان بنفسه إذا ترفّع وتكبّر، فهو مُعْجَب برأْيه وبنفسه.

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص313، كتاب الإيمان، باب العجب.

(2) الشيخ المحدث محمد بن الحسن الحُر العاملي، وسائل الشيعة، ج1، الباب 23 من أبواب مقدمة العبادات، حديث 8.

(3) الآمدي التميمي، غرر الحكم، فضيلة حسن الخلق، الحكمة 5357.

(4) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج69، ص315 .

(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص313، كتاب الإيمان، باب العجب.

(6) الإمام السيد روح الله الموسوي الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحَديث الثَالِث.

وقِيلَ: العُجْبُ: فَضْلَةٌ من الحُمْقِ صَرَفْتَهَا إلَى العُجْب، ونَقَل عن «الرَّاغب» في الفَرْقِ بَيْن المُعْجَبِ والتَّائِهِ فَقَالَ: المُعْجَبُ يُصَدِّقُ نَفْسَه فِيمَا يَظُنُّ بِهَا وَهْماً . والتَّائِهُ يُصَدِّقُهَا قَطْعاً[1].

### 2. اصطلاحًا

يقــول الشيخ بهاء الديــن العاملي رَحِمَهُ اللهُ: «لا ريب في أن من عمل أعمــالاً صالحة من صيام الأيام وقيام الليالي، وأمثال ذلك يحصل لنفسه ابتهاج، فإن كان من حيث كونها عطية من الله له، ونعمة منه تعالى عليه، وكان مع ذلك خائفاً من نقصها، شفيقاً من زوالها، طالباً من الله الازدياد منها، لم يكن ذلــك الابتهاج عجباً. وإن كان من حيث كونها صفته وقائمة به ومضافة إليه، فاستعظمها وركن إليها، ورأى نفسه خارجاً عن حدّ التقصير، وصار كأنّه يمنّ على الله سبحانه بسببها فذلك هو العجب»[2].

## العُجْب من أشراك الشيطان الخطيرة

«تمتــدّ جذور هذه المسألة إلى حبّ الذّات. وحبّ الذّات هو من لوازم وجود الإنسان ومن المستحيل أن يوجَد موجود ذو شعور لا يُحبّ ذاته. لكنّه عندما يوفّق الله الإنسانَ للقيام بأمر على أحسن وجه وبنيّة صالحة ويبلغ به النتيجة المرجوّة يأتي الشيطان ليوسوس له بأنّك – حقيقةً – شخص مميَّز جدّاً. فإذا أتى المرء بعبادة مثلاً أوحى الشيطان له بقياس نفسه بأهل المعاصي قائلاً له: انظر كيف أنّ الآخرين مبتلــون بالمعاصــي والشهوات وغلبة الهوى في حين أنّك – والحمــد لله – من أهل العبادة ومصون من الذنــوب. فإنّــك مفضَّل كلّ التفضيل على الآخرين! ثمّ يُحاول شيئــاً فشيئاً استدراجه إلى مقارنة نفسه بأهــل العبــادة ويكشف له عن أولئــك العُبّاد المتورّطين ببعض الزلّات والسيّئات، وفيمــا يتعلّق بسائر أمــور الخير والصلاح كطلب العلــم، والتدريس، والخطابة، والإنفاق، ومثيلاتهــا فهو يبذل غاية وسعه ويوسوس له بأنّك تفوق الكثير من أقرانك ومن يُماثلونك في أعمال الصلاح بالفضل والامتياز»[3].

## مفاسد العُجب

يقــول الإمــام الخمينــي قُدِّسَ سِرُّهُ في مفاســد العجب: «**ســأل موســى بن عمــران علــى نبيّنــا وآله الشــيطان: «أَخْبِرْنــي بِالذَّنْــبِ الَّذي إِذَا ارتَكَبَــهُ ابنُ آدَمَ اسْــتَحْوَذتَ عَلَيه، قال: إذا أَعْجَبَتْهُ نَفْسُــه، واسْتَكْثَر عَمَلَهُ، وَصَغُر فِي عَيْنِه ذَنْبُه**»[4].

(1) محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، تاج العروس، ج 3، ص 318، طبعة دار الهداية.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 72، ص306.

(3) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 13 آب، 2011 م.

(4)الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص214، كتاب الإيمان، باب العجب، ح 8.

وقال: قال الله تعالى لداود عليه السلام: «**يا داود بَشِّر المُذْنبينَ وأنْذر الصِّدّيقينَ، قال: يا ربّ كَيْفَ أُبَشِّر المُذْنبينَ وأُنْذر الصِّدِّيقين؟ قال: يا داود بَشِّر المُذْنبينَ أني أَقْبَلُ التَّوْبَةَ وأَعْفُو عَنِ الذَّنب. وأَنْذِر الصِّدِّيقينَ أَلاّ يُعْجِبُوا بِأَعْمالِهِمْ، فَإنهُ لَيْسَ عَبْدٌ أَنْصِبُه لِلْحِسابِ إلاّ هَلَكَ**»[1]. نعوذ بالله تعالى من المناقشة في الحساب التي تُهلك الصديقين ومن هو أعظم منهم.

ينقل الشيخ الصدوق في الخصال مسنداً إلى الإمام الصادق أنّ الشيطان يقول: «**إذا استمكنت من ابن آدم في ثلاث لم أُبال ما عمل، فإنّه غير مقبول منه: إذا استكثر عمله، ونسي ذنبه، ودخله العُجْبُ**»[2]. يضاف على ما سمعت من مفاسد العجب، أنّه شجرة خبيثة، نتاجها الكثير من الكبائر والموبقات.

فعندما يتأصّل العجب في القلب، يجرّ عمل الإنسان إلى الكفر والشرك وإلى ما هو أعظم من ذلك، ومن مفاسده استصغار المعاصي. بل إنّ ذا العجب لا ينهض لإصلاح نفسه ويظنّ أنّ نفسه زكيّة طاهرة، فلا يخطر على باله أبداً أن يُطهّرها من المعاصي، لأنّ ستار الإعجاب بالنفس وحجابه الغليظ يحول بينه وبين أن يرى معايب نفسه، وهذه مصيبة، إذ إنّها تحجز الإنسان عن جميع الكمالات، وتبتليه بأنواع النواقص، وتؤدّي بعمل الإنسان إلى الهلاك الأبدي، ويعجز أطباء النفوس عن علاجه...

ومن مفاسده الأخرى أنها تجعل الإنسان يعتمد على نفسه في أعماله، وهذا ما يُصبح سبباً في أن يحسب الإنسان الجاهل المسكين نفسه في غنى عن الحق تعالى، ولا يرى عليه فضل الحقّ تعالى، ويرى بحسب عقله الصغير أنّ الحقّ تعالى ملزم بأن يُعطيه الأجر والثواب، ويتوهّم أنه حتى لو عومل بالعدل أيضاً لاستحقّ الثواب، وسيأتي فيما بعد ذكر هذا الأمر إن شاء الله، ومن مفاسد العجب الأخرى، أن ينظر الإنسان باحتقار إلى عباد الله، ويحسب أعمال الناس لا شيء وإن كانت أفضل من أعماله، فتكون هذه النظرة وسيلة لهلاك الإنسان أيضاً، وشوكة في طريق خلاصه ونجاته.

## العُجب بذرة الرذائل

ومن مفاسده الأخرى، أنّه يدفع الإنسان إلى الرياء، لأنّ الإنسان بصورة عامّة إذا استصغر أعماله وجدها لا شيء، ووجد أخلاقه فاسدة، وإيمانه لا يستحقّ الذكر، وعندما لا يكون معجباً بنفسه ولا بصفاته ولا بأعماله، بل وجد نفسه وجميع ما يصدر عنها سيّئاً وقبيحاً، لا يطرحها ولا

---

(1) م . ن.

(2) الشيخ الصدوق، الخصال، ج1، ص112، حديث 86.

يتظاهـر بها، فـإنّ البضاعة الفاسدة تكون سيّئة وغير صالحة للعرض، ولكنّه إذا رأى نفسه كاملاً وأعماله جيّدة، فإنّه يندفع إلى التظاهر والرياء، ويعرض نفسه على الناس.

وهنـاك مفسـدة أخرى هـي أنّ هذه الرذيلة تؤدّي إلـى رذيلة الكبر المهلكـة، وتبعث على ابتلاء الإنسـان بمعصيـة التكبّـر، .. وتنشأ من هـذه الرذيلة مفاسد أخـرى أيضاً بصـورة مباشرة وغير مباشـرة، وشـرح ذلك يوجب التفصيـل. فليعلم المعجـب أنّ هذه الرذيلة هي بـذرة رذائل أخرى، ومنشأ لأمور يُشكّل كلّ واحد منها سبباً للهلاك الأبديّ والخلود في العذاب، فإذا عرف هذه المفاسد بصـورة صحيحة ولاحظها بدقّة، ورجع إلى الأخبار والآثار الـواردة بشأنها عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهـل البيـت ذلك القائد عليهم السلام أجمعين، «فمـن المحتّم أن يعتبر الإنسـان نفسه ملزماً بالنهوض لإصلاح النفس، وتطهيرها من هذه الرذيلة واستئصال جذورها من باطن النفس»[1].

## العجب مقرون بالغرور

«أمّـا القسـم الآخر – الذي يُشكّل القسـم الأعظم من البشر – فإنّهم عندمـا يرون في أنفسهم امتيـازاً عن الآخريـن فإنّهم يتفاخرون ويختالون قائلين: نعم، نحن هكـذا! وهذه هي حالة العُجْب. فالشيطـان يتسلّـل إلى نفس الانسان مـن هذه الثغرة ويصرعـه أرضاً بقوّة شديدة حتّـى أنّه يبقى مترنّحاً لمدّة من الزمن.

فالعُجـب هو آفة ذميمة للغاية، وهو يقترن غالباً بالغرور، فالإنسان المُعجَب بنفسه لا يُقيم وزناً للآخريـن ويعتقد أنّ كلّ ما يفهمـه ويُدركه هو غاية ما توصّل إليه العقل البشريّ من العلم الصحيح ومـا مـن أحد غيره يفهم ما يفهمه هو، وهو ينكر على الآخرين كلّ مـا يطرحونه خلافاً لرأيه بل ولا يـرى فيه ما يستحـقّ الإصغاء إليه أساساً، وهكـذا يُبتلى بالغرور. وإنّ من أهـمّ العوامل التي تسوق المرء إلى جهنّم هو الغرور الذي يكون منشؤه العُجب.

لكن ما هو السبيل إلى معالجة هذه الآفّة الخطيرة؟ بالطبع إنّ كلّ شخص يدّعي بعض الامتيازات لنفسه. فالإنسان الذي لا يدّعي أيّ امتياز لنفسه فهو متورّط بشكل من أشكال الكفران وعدم إدراك آلاء الله عـزّ وجـلّ، فلقد خصّ الله تعالى كلّ شخص بامتياز خاصّ. لكـنّ الانسان إذا لم يعمد إلى ترويض صفة حبّ الذّات في نفسه فسوف تقوده إلى ما ذكرنا من الآثار»[2].

---

(1) الإمام السيد روح الله الموسوي الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحديث الثالث.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 13 آب، 2011 م.

## علاج العُجْب بمعرفة النفس

**«إنّ أنجع طريقة لعلاج العُجب هي أن يلتفت الانسان أكثر إلى نقائصه. يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الصدد: «ما لابن آدم والعُجب! وأوّله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل العذَرة»**[1]؛ فإنّ بدايته ماء فاسد، ونهايته جيفة متعفّنة قذرة وهو بينهما يحمل القاذورات والفضلات. فما الذي يُمكن أن يتفاخر به موجود كهذا؟

إذن فهي أفضل طريقة يتخلّص بها المرء من العُجب وحبّ النفس والغرور والكبر. وقد أشار القرآن الكريم في بضعة مواطن إشارة لطيفة إلى هذا الموضوع؛ فقال عزّ من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[2]؛ أي فإذا هو يُخاصمنا ويتفوّه بالكلام علينا (ينكر المعتقدات الصحيحة ويُجادل في أحكامنا).

يقول الإمام محمّد الباقر عليه السلام في هذا الحديث: «**سُدّ سبيل العُجب بمعرفة النفس**». فإذا أردت إغلاق باب العُجب بوجهك فما عليك إلاّ أن تعرف نفسك، ولقد طُرحت قضيّة «معرفة النفس» في أدبنا الدينيّ بصور مختلفة، وقد أورد المرحوم العلاّمة الطباطبائيّ (رضوان الله تعالى عليه) في الجزء السادس من تفسيره «الميزان» في ذيل تفسير الآية الشريفة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[3] مباحث عميقة وقيّمة للغاية تحت عنوان معرفة النفس. لكنّه يظهر أنّ المراد من معرفة النفس في هذا الحديث الشريف هو معنىً أكثر بساطة، فمن شأن هذا التأمّل أن يُعينك على عدم الابتلاء بالعُجب والغرور. بالطبع قد يكون لهذا الكلام زوايا وأبعاد مختلفة، وإنّ معرفة كلّ زاوية، وبُعد من معرفة النفس تكون ذات أثر في نفي العُجْب بمعنى من المعاني»[4].

## معرفة النفس مقدّمة لمعرفة الله

إنّ الدين الفطري يعتبر أمر عرفان النفس أمراً ضرورياً يتوصّل به إلى السعادة الإنسانية التي يدعو إليها، وهي معرفة الإلَه التي هي المطلوب الأخير عنده. وبعبارة أخرى: الدين الإسلامي إنّما يدعو إلى عرفان النفس دعوة طريقية، ومعرفة النفس لها العلاقة المباشرة بالتوحيد الذي هو أصل

(1) الآمدي التميمي، غرر الحكم، الحكمة 7087.

(2) سورة يس، الآية 77.

(3) سورة المائدة، الآية 105.

(4) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 13 آب، 2011 م.

الأصـول، فكلّما غاصـ الإنسان وتعمّق في معرفة نفسه ونقصها، فإنّـه سيترقّى في سلّم معرفة ربّه وكمالـه المطلـق، وسيكون حينها قابلاً لأن يعرف الله أكثر فأكثر. «ومـا ترونه ونراه من كثرة غرور الإنسان يرجع إلى كونه لم يعرف نفسه، فإنّ «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»[1].

إنّ هذه الكلمة «**من عرف نفسه، فقد عرف ربّه**»[2]، وقوله عليه السلام: «**من عجز عن معرفة نفسه، فهـو عـن معرفة خالقه أعجـز**»[3]، كلمات قد خرجت من الإمام علي عليه السلام مخرج التأديب والحث علـى جماع مـكارم – الأخلاق واقتنـاء الفضائل، وذلـك أنّ الإنسان إذا عرف نفسـه بكثرة عيوبها ونقصانهـا وحاجتها إلى التكميل كان ذلك داعياً لـه على إصلاح قوّتيه العملية والنظرية ثم إنّه نبّه علـى وجوب معرفة النفس بعد ذكرها بأنّهـا أقرب قريب إلى الإنسان بحيث يحتاج في معرفتها إلى طلـب زائد هي وسيلة إلى الغاية المطلوبة للكلّ الواجبـة على الإطلاق وهي معرفة – الصانع. وهذا شـأن المؤدِّب الحاذق أنْ يُعين مطلوبـه أولاً لمن يؤدّبه عليه ثم يُنبّهه على حسنه ووجه وجوبه عليه، وليـس مقصـوده الأول ههنا هو التنبيه على وجوب معرفة الله، ولو أنّـه قدّم معرفة الله تعالى لفات الغرضـ المذكـور من الكلمة، ولما بقى ذلـك الذوق لها، ولما كان ذلك حثّـاً للإنسان على الاطلاع علـى عيب نفسـه، وأنت بعد مخض هذه الكلمة فـي سقاء ذهنك وإرسال الرائـد الفكري في جميع مفهوماتها ستجمع لك زبدتها، والله ولي هدايتنا[4].

## معرفة النفس مقدّمة لمحاسبتها

روى مولانا الإمام المجتبى الحسن بن علي عليه السلام عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**لا يكون العبد مؤمناً حتى يُحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه، والسيد عبده**»[5].

هناك سؤال قد يخطر على بال أي متتبّع لهذا الموضوع، وهو: كيف نقوم بمحاسبة من لا نعرفه؟ ولا نعرف إمكاناته وتجهيزاته وخططه! ولكي أُحاسب النفس يجب أن تكون معلومة لي.

والحقيقـة أنّ هـذا الحديـث الشريـف وكلّ منظومـة أحاديـث النبي الأكـرم والأئمـة من أهل بيتـه عليهم السلام التي تحضّ على محاسبة النفس، ومجاهدتها، وتُبيّن المعايير التي يتوجّب استخدامها لإجـراء هذه المحاسبـة، والآليات التي وضعهـا المعصومون عليهم السلام لذلك، تؤكّـد أنّ معرفة النفس

(1) الإمام السيد روح الله الموسوي الخميني قدس سره، البسملة، ص18، تحت عنوان الصور الأخرى للأعمال.
(2) الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، راجع شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد المدائني، ج20، ص 292.
(3) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج20، ص 292.
(4) كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين، ج1، ص58، طبعة جماعة المدرسين.
(5) الحُر العاملي، وسائل الشيعة، ج16، ص99، الطبعة 1: مؤسسة آل البيت، قم.

أمر ممكـن ومتيسّر، بدليل أمر المعصـوم بمحاسبة النفس ومجاهدتها، فـإنّ المعصومين عليهم السلام وعلى سنّة من الله تعالى لا يُكلّفون إلا بالمقدور عليه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1]. والدليل الآخر هو: التحليل الذي استخدمناه الآن، ولكن يبقى السؤال الأساس: كيف أستطيع أن أتعرّف على نفسي؟ كي أُحاسبها وأُجاهدها، وأيّ شيء فيها أستطيع أنْ أُحاسبه وأُجاهده، وأُغيّره؟

كلٌّ منّـا لديه تصوّر معيّـن عن أهمّية هذا الموضوع والطرق المؤدّية إليـه، ولكن المعلومات العامّة المنتشرة بهذا الصدد، لا تخضع عادة لقواعد منهجية محدّدة، ممّا أدى إلى دخول اجتهادات شخصية كثيـرة دون أن تستند إلى ركائز علمية موضوعية، أو بـدون الاستناد إلى نظرية علمية معيّنة، ممّا أدّى إلى ضياع حقيقي وفي اتجاهات شتّى لدى الأفراد الذين تأثّروا بتلك الاجتهادات التي لا ركائز لها.

## الفكر ينير اللب[2]

إنّ مـن عناويـن معرفـة النفس الشائعة التي لا خـلاف عليها هي معرفة مواطـن قواها وكيفية الوصول إلى هذه القوى، وهذه المعرفة ليست للاطلاع النظري أو للترف الفكري، بل هي علم يجب أن يقتـرن بالعمـل الواعي، والهـادف لسبر أغوار النفـس، ومن ثم معرفة نقـاط الضعف، وتحديد أسبابها، واكتساب الخبرات اللازمة للتخلّص منها.

قـال مولانا الإمام المجتبى عليه السلام: «**عجب لمن يتفكّر فـي مأكوله . كيف لا يتفكّر في معقوله، فيُجنّب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يُرديه**»[3]. هذا كلامه عليه السلام بعين لفظه، فأمعِن النظر فيه تجده كنزاً لا يُقدّر بثمن، ودعوة لا نظير لها على طول الزمن وجّهها سبط المصطفى إمامنا الحسن.

وقال أبو الحسن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أصل العقل الفكر، وثمرته السلامة**»[4].

للعلـم والبيان إنّ أحد أهمّ الأصول العظيمة التـي يتوصّل بها إلى معرفة النفس لم يُعطَ الأهمّية الكافيـة في التأمّل والبحث، ولـم يُستفاد منه تمام الفائدة مع أنّه يُقـدّم كلّ الحلول، ويوضح كلّ ما أبهم في هذا الشأن، وهذا الأصل هو قول سيّدنا ومولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**العقول أئمّة الأفكار، والأفكار أئمّة القلوب، والقلوب أئمّة الحواسّ، والحواسّ أئمّة الأعضاء**»[5].

---

(1) سورة البقرة، الآية 286.

(2) الآمدي، غرر الحكم و درر الكلم، الفصل الخامس في الفكر، رقم 536.

(3) قطب الدين الرواندي سعيد بن هبة الله، الدعوات «سلوة الحزين»، ص 144، رقم 375.

(4) الآمدي، غرر الحكم، ص 52، أفضل العقل وكماله، الحكمة 404.

(5) محمد بن علي الكراجكي، كنز الفوائد، ج1، ص 200، الطبعة 1: دار الذخائر، قم.

## الأفكار أئمّة القلوب

نعـم إنّ الأفكار هي ما تحتويه العقول، وهي أئمّـة القلوب المؤثّرة فيها، فينتج عنها السلوك بكلّ أنواعـه وأشكالـه، وما أظنّ في لغـات البشر كلّها أدلّ من حديث أميـر المؤمنين عليه السلام على ذلك، فتأمّل كلّ الخلال الرديئة التي تتحوّل إلى رذائل عندما يتبنّاها الإنسان، كالعُجب، والكِبر، والكذب، والغشّ، والغـدر، والخيانة، والغضب،...، فستجد أصلها ومنشأها كلّهـا هي الأفكار السلبية السيّئة التي تغلغلت في النفس وترسّخت فيها، فأصبحت بالمداومة من ملكاتها.

أيّها الأحبّة: إنّ أيّ سلوك مهما كان نوعه، يسبقه فكرة !! وعادة ما نُطلق على ما يسبق السلوك، أسمـاء كثيـرة نُصنّفها ونُعطيها حدوداً وأبعاداً وكأنّها أشياء لا يُمكـن معرفة أسبابها «دافع، رغبة، أماني، شعور،إرادة، إحساس، آداب، مخاوف وضعف .. الخ».

إنّ الأفكار تتواجـد بنوعيها الإيجابي والسلبي خلف كلّ السلوكيات الإيجابية والسلبية التي يقوم الإنسان بأدائها، خلال مراحل حياته المختلفة.

كيف يتخلّص المرء من فكرة سلبية ما، ما لم يفهمها ويفهم مكوّناتها، وما لم يفهم كيفية دخول هذه الفكرة إلى منظومته الفكرية والسلوكية؟ ومن ثم كيف يوقف العمل بها؟

فـي هـذا المنهج يستطيـع أيّ شخصـ أن يقوم بمفرده بعمليـات مراقبة وفـرز وتنظيم وتقويم ومحاكمـات وتقديم موافقات جديدة، وإلغـاء موافقات قديمة على استخدام أفـكار سابقة دون أن يُدخل لداخله أحد[1].

الآن يُمكننا القول إنّ الإمام الباقر عليه السلام قال: «**وَسُدَّ سَبِيلَ العُجْبِ بِمَعرِفَةِ النَّفس**» لأنّ جدّه أميـر المؤمنين عليه السلام قد قـال: «**العُجب آفّة اللـب**»[2]، وفي وصيّته لولـده الإمام الحسن عليه السلام: «**واعلم أنّ الإعجاب ضدّ الصواب، وآفة الألباب**»[3].

وصلى الله على سيّدنا مُحمد وآله الطاهرين.

---

(1) إن مـا تطرقنـا لـه في هذه السطور حول موضوع معرفة النفس من خلال الأفكار هو رؤوس أقلام مستوحاة من منهجية علمية لم تُصَدر لنا من الغرب أو الصين، ولكنها مبنية على الأصول التي ألقاها لنا أئمتنا الهداة المهديين، وكان يحفز على استخراجها ، وأمثالها من تـراث الطاهريـن مراجعنا الكـرام الميامين، فأخرجها إلى النور بعد جهد عدة سنين رجل من جبل عامـل أسمه «أ.حسين الشيخ علي جعفر العاملي» ، تنمية قدرات فكرية وتطوير شخصية ، المرحلة الأولى.

(2) الآمدي التميمي، غرر الحكم، الفصل الثاني عشر في موانع المعرفة، الحكمة 848.

(3) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج16، ص 84.

# التفويض والراحة

## نصّ الوصيّة

- قال الإمام أبو جعفر مُحمد بن علي الباقر عليه السلام موصياً صاحبه، وتلميذه النجيب جابر الجعفي

«وتخلص إلى راحة النفس بصحّة التفويض، وَاطْلُبْ رَاحَةَ الْبَدَنِ بإجْمَامِ الْقَلْبِ، وَتَخَلَّصْ إِلَى إجْمَامِ الْقَلْبِ بِقِلَّةِ الْخَطَأ»[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75 ، ص164، باب وصايا الباقر عليه السلام .

## الراحة تكمن في الإيمان والتفويض

إنّ مـن آثـار صحّة تفويض العبد أمره إلى مولاه راحة النفـس واطمئنانها وسعادتها، ومن المعلوم لكلّ عاقل أنّ النفس لا تحتمل الأوامر من جهات متعدّدة - والأمثال تُضرب ولا تُقاس - فلا يُعقل أن يكون للعبد أكثر من سيّد يملكه، وإلا سيقع عندها العبد المملوك ضحيّة أهواء المُلّاك ، فكلٌّ يأمر وكلٌّ ينهى، وعندها لا يدري العبد ماذا يفعل ، فيُصبح قلبه تائهاً ، ونفسه مضطّربة، وفي همٍّ وغمٍّ لا يدري من يُرضي.

وأمّا إذا كانت الأوامر والنواهي الموجّهة للنفس من واحد فقط ، فستراها مسارعة لامتثال تلك الأوامـر ومنتهية عن تلـك النواهي، وبهذا يُتخلّص إلى راحة النفس واطمئنانها، والملاحظ أنّ هذه الراحـة، لا توجد في المال، ولا في المناصب، ولا في الرتب، ولا عند الزوجات والأولاد، وإنّما توجد فـي شـيء واحد ألا وهو في الإيمان بالله تعالى وصحّة تفويض الأمـر إليه، والاعتماد عليه جلّ شأنه مـع الأخذ بالأسباب، وغير ذلك لا يُعدّ توكّلاً كما هو معلوم، وإنّما تواكلاً، فالذي جاء إلى النبيﷺ وقال: يا رسول الله! أرسل ناقتي وأتوكّل، نهاهﷺ ووجّهه قائلاً: «**لا ، اعقلها وتوكّل**»[1].

وأمّـا الذيـن أضاعـوا الطريـق ولم يؤمنـوا بالله حقيقـة الإيمان ، ولـم يفوّضوا أمورهـم إليه، فستجدهـم قـد فقدوا راحـة النفس، وطمأنينة القلب، وهـدوء البال، وراحوا يلهثـون وراء السحرة والدجّاليـن بعدمـا ذهبوا إلى الأطبّاء النفسييـن، وعجز علماء الاجتماع عن حـلّ ألغاز مشاكلهم ، فكانوا كمن يستجير من الرمضاء بالنار.

## معنى التفويض الحقيقي

«يقـول الإمام الباقـر عليه السلام هنا: «**وَتَخَلَّصْ إِلَى رَاحَةِ النَّفسِ بِصِحَّةِ التَّفْويضِ**»؛ أي إنْ أردت أنْ تكـون مرتاح البال ومطمئنّاً تمامـاً ففوّض أمورك إلى الله! كما أنّه عليه السلام لم يقل: «**تخلّص إلى راحة النفس بالتفويض**» بل قال: «**بصحَّة التَّفويض**». ولعلّ مـا أراد عليه السلام التنويه إليه هنا هو أنّ الإنسـان قـد يخـدع نفسه أحياناً فلا يُفوّض الأمر إلى الله حقيقة، بل يقول مـن باب التقاعس: لقـد فوّضت الأمر إلى الله. وهذا ليس بالتفويض الصحيـح، بل هو تقاعس وعدم لياقة. فالتفويض الصحيـح هو أن يكون المرء قادراً على إنجاز العمـل ويُنجزه فعلاً بدافع التكليف لكنّه - مع ذلك -

---

(1) محمد بن حبان بن أحمد، صحيح ابن حبان، ج2 ، ص510 ، حديث 731 ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة .

يعتمد على الله تعالى ولا تكون النتيجة مهمّة بالنسبة إليه مهما كانت»[1].

وَلَـــن يُضــيــعَ اللّه أَجــــرَ امــرِئٍ
قَــد فَـــوَّضَــ الأَمـــــر لَــــهُ وَاحـتَـسَــب

## المؤثّر المستقلّ هو الله وحده

ما نفهمه نحن ابتداءً من نظام الأسباب والمسبّبات هو استقلال هذه الأسباب في التأثير؛ بمعنى أنّنا نظنّ أنّ الماء الذي نشرب هو الذي يرفع العطش، سواء أكان هناك إله أم لم يكن. والحال أنّ الحقيقة ليست كذلك. فإنّ جميع الأديان السماويّة وكافّة الأنبياء والرسل قد جاؤوا لإخبارنا بأنّ ما نراه من حياتنا لا يُمثّل إلاّ الطبقة السطحيّة من الحياة وأنّ لهذه الحياة باطناً وحقيقة أيضاً هي أسمى بكثير من هذه الأمور، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾[2]، فلا تخدعنّكم هذه الحياة الدنيا!

فالقرآن الكريم يحرص كلّ الحرص على أن ينبّهنا في كلّ الأحداث والوقائع «**بأنّ الله هو الذي يفعل ذلك**». فهو يحاول أن يُفهمنا من خلال هذه التعبيرات بأن لا نلتفت إلى الأسباب الظاهريّة فقط. فهذا هو أحد الأهداف العظيمة التي يسعى إليها الأنبياء؛ إذ يقول القرآن الكريم لنبيّنا ﷺ: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[3]؛ أي: هذا هو مستواهم العلميّ (فهو ضحل جدّاً)[4].

## نماذج من النعم الإلهيّة الخاصّة بالمتّقين

### 1. حبّ الإيمان

«إنّ الله جلّ وعلا يُسبغ على أولئك الذين لا يستعملون هذا النظام الطافح بالنعم الإلهيّة - التي لا تُحصى ولا تُعدّ - إلاّ من خلال النظام التشريعيّ؛ يُسبغ عليهم نعماً أخرى ليست هي من سنخ الآلاء المادّية، بل من جنس نورانيّة القلب، والأُنس بالله، وفتح العيون المعنويّة، ومشاهدة الحقائق، وما إلى ذلك.

أمّا نحن فعند مقارنتنا لهذه النعم نفهم على الأقلّ أنّ نور الإيمان لا يُساوي ظلمة الكفر. فالإنسان الكافر يُبتلى بشكل من أشكال الظلمة والعتمة، أمّا المؤمن فهو يتمتّع بنورانيّة تتناسب مع مستوى إيمانه. فالقرآن الكريم يقول: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 15 آب ، 2011 م.

(2) سورة لقمان، الآية 33.

(3) سورة النجم، الآيتان 29 و30.

(4) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 15 آب ، 2011 م.

يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[1]؛ وسبب الإضلال هنا هو أعمال المرء القبيحة طبعاً. فالكافر يشعر بالضغوط والضيق في حياته ويُحاول دائماً الفرار من شدّة سأمه من الحياة، وكأنّه يريد الصعود إلى ما هو أعلى من السماء.

على أيّة حال فإلى جانب النعم المادّية التي يشترك فيها المؤمن والكافر فقد جعل الله عزّ وجلّ نعماً أخرى غيرها يمنّ بها على الذين يستخدمون النعم المادّية على النحو الصحيح. يقول الله في محكم كتابه العزيز: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[2]؛ و«**كفلين**» يعني سهمين، فمن النعم العظيمة التي يمنّ بها الله تعالى على عباده المتّقين هي نعمة حبّ الإيمان وبغض الكفر.

### 2. رزق المرء من حيث لا يحتسب

إذا أحسن المرء الإفادة من أنعُم الله جلّ شأنه فسيمنّ الله عليه بلطف آخر وهو أن يُسهّل له الإفادة من النعم الدنيويّة. يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾[3]؛ فالله عزّ وجلّ لا يذر المتّقين يواجهون طريقاً مسدوداً؛ بمعنى أنّ الذين يفيدون من نعم الله ضمن أُطر الأحكام الإلهيّة فمضافاً إلى أنّ الله يُمتّعهم بنعم الدنيا وبالنعم المعنويّة فإنّهم لا يصلون في الشؤون الدنيويّة إلى طريق مسدود. فالله يرزق أمثال هؤلاء لكن طبق نظام لا يخطر ببالهم. وكذا في البعد الاجتماعيّ فهو يقول: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[4]؛ فحتّى بالنسبة للمجتمع الذي أفراده من الأتقياء والذين يُراعون أحكام الإسلام ويُقيمون لها وزناً فإنّ الله يُنزل عليهم البركة؛ أي يُنيلهم النعم الدنيويّة بشكل أكثر راحة وأشدّ وفرة بكثير[5].

## الراحة والبركة للمفوّضين أمورهم إلى الله

إنّ لله سبحانه نمطاً آخر من أنماط التعامل أيضاً وهو تدبير الأمور. فالله عزّ وجلّ يُدبّر شؤون عباده المتّقين بطريقة تجعلهم يجنون أفضل النتائج من أعمارهم. وفي المقابل فعلى الرغم ممّا يتجشّمه بعض الناس من سعي حثيث فإنّهم لا يظفرون بمنافع دنيويّة جيّدة ولا

(1) سورة الأنعام، الآية 125.
(2) سورة الحديد، الآية 28.
(3) سورة الطلاق، الآيتان 2 و3.
(4) سورة الأعراف، الآية 96.
(5) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 15 آب ، 2011 م.

يترقّـون على الصعيد المعنويّ، وهم دائمو التذمّر – فـي العادة – من أنّ جميع أمورهم متوقّفة ولا تسير حسب الأصول.

أمّـا أعمـار أهـل التقوى فإنّ فيها مـن البركة ما يُحيّـر الألباب. يقول المرحـوم آية الله بهجت (رضـوان الله تعالى عليـه): «كان المرحوم الشيـخ محمّد حسين الأصفهانـيّ (رضوان الله تعالى عليـه) إذا لـم يُشاهد أحدٌ غير عبادته ظـنّ أن لا شغل له سوى العبادة، وإذا لـم ينظر أحد إلاّ إلى أعماله العلميّة حَسِب أنّه لا وقت له لأيّ عبادة قطّ. فهو رَحِمَهُ اللهُ لم يترك قراءة زيارة عاشوراء وصلاة جعفر الطيّار حتّى آخر يوم من عمره المبارك.[1]

كمـا ويقـول المرحوم الحاج الشيخ محمّد البروجرديّ: «كان المرحـوم الحاج الشيخ محمّد حسين يُقيم مجلس عزاء أسبوعيّاً وكان ملتزماً بصـبّ الشاي وتقديمه للضيوف وصفّ أحذيتهـم بنفسه. وكُنتُ ألاحظ حيـن استقبالـه للضيوف وإنجازه لبقيّة الأعمال أنّه كان باستمرار يُـردّد مع نفسه ذكراً معيّناً. فنفد صبري ذات يـوم فبادرته بالسؤال: أيّ ذكر هذا الـذي تُصرّ إصراراً شديداً على ترديده؟ فقال لي بعد تأمّل بسيط: من المستحسن أن يقرأ المرء يوميّاً سورة ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ ألف مرّة»[2]! فهذا هو نموذج العمر المبارك.

كمـا أنّ لله شـكلاً آخر من أشـكال التعامل مع المؤمنين وهـو أنّه يُدبّر أمورهم طبقـاً لهذا التعامل بحيث يجعل الإنسان المتّقي يُنفق وقته في أفضل الأعمال. فالسعي وراء الرزق الحلال بالنسبة للإنسان المؤمـن عبـادة؛ لكن هناك فرق كبير بين هذه العبادة والعبـادة الخالصة التي لا يكون فيها إلاّ العلاقة مع الله. فعندما يرى الله تعالى أنّ عبده يعشق العبادة حقّاً ويُريد أن يأنس به ولا يرغب في الالتفات إلى غيره، فإنّه يُدبّر أموره على نحو بحيث لا يُنفق كثيراً من الوقت في شؤون الدنيا. فهو يعمل طبقاً لتكليفه الشرعيّ ألا وهو السعي لكسب الرزق، ويفتح باب دكّانه، ويُمارس البيع والشراء بمقدار كفايته من الرزق لكـنّ هذه الأعمال كلّها لا تُشكّل عائقاً لعبادته. فهـذا التدبير يعجز عقل الإنسان بمفرده عن القيام به. فقد جاء في دعاء عرفة: «**إلهي! أَغنِني بتدبيرك لي عن تدبيري وباختيارك عن اختياري**»[3].

## لا ينبغي الخلط خطأً بين التفويض والتقاعس

«قـد يطلـب الإنسان أحياناً مثل هذا الطلب لكنّه بدافع الرغبة في نيل الدنيا بسهولة وعن طريق التقاعـس، ومـن أجل ذلك فهو يسـأل الله العون والمساعدة كي يصل أسـرع إلى مبتغاه. فمثل هذا الشخص إنّما يسعى وراء راحته الدنيويّة.

---

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 15 آب ، 2011 م.

(2) م.ن.

(3) بحار الأنوار، ج95، ص226.

أمّـا أولياء الله فإنّهم يطلبـون من الله مثل هذا الطلب لغرض التفـرّغ للعبادة والقيام بالأعمال الأهمّ والأفضل. فأمثال هؤلاء لا يُحبّون أن يُحجَبوا عن الأعمال المهمّة. إنّهم يرغبون في أن يكونوا أشدّ انشغالاً بالأعمال التي يُحبّها الله أكثر من غيرها.

ومن هنا فإنّ الله يتعهّد بتدبير أمورهم من جهة ويرفع عنهم البلايا من جهة أخرى ويقيهم تأثير كيـد أعدائهـم كي لا يكون عائقاً لأعمالهم من جهة ثالثة. هذا المنهج مخصّص لأولئك الذين يتّكلون على الله من أعماق قلوبهم ويفوّضون أمورهم إليه. ففي مثل هذه الحالة يتولّى الله أمورهم بنفسه.

لقد ذكَرتْ إحدى الروايات[1] خواصّ بعض الآيات؛ فقالت على سبيل المثال إنّ «**الذكر اليونسيّ**» ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]، ينتشل المرء من الهمّ والغمّ؛ ذلك أنّ نبيّ الله يونس عليه السلام بعد أن التقمه الحوت، وبقي في جوفه تضرّع إلى ربّه بهذا الذكر، فقال القرآن بعد ذلك: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

ثـمّ تُعرّج نفس هذه الرواية على قول مؤمن آل فرعون حينما قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[4]؛ فيقول القرآن الكريم بعد ذلك: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾[5]؛ فعندما فوّض أمره إلى الله حفظه الله من مكر الأعداء ومخطّطاتهم الخطيرة التي رسموها له.[6]

## الفارق بين وصفة الأنبياء ووصفة الماديّين للراحة

«إنّ التفـات الإنسـان العميق إلـى مخاطر الدنيا وشدائدهـا من شأنه أن يمـلأ حياته بالتعاسة والمـرارة؛ ذلـك أنّه سيحتمل وقـوع المصيبـة أو الشدّة في كلّ لحظـة. فالذين تشغـل هذه الأمور أذهانهـم كثيـراً ما يُصابون بشكل من أشكال التبعثر النفسيّ. وعلـى أيّة حال فإنّ حياة كهذه تكون محفوفـة بألـوان الاضطراب والقلـق إلى حدّ ذهـاب الوجوديّين[7] إلى القـول: إنّ الاضطّراب يقوّم إنسانيّة الإنسان، وإنّ الذي لا يشعر بالاضطّراب ليس بإنسان».

---

(1) عـن الإمـام الصادق عليه السلام قـال:«...، **وعجبتُ لمن اغتـمّ كيف لا يفزع إلـى قولـه:** ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قدس سره، **فإنّـي سـمعت الله عـزّ وجـلّ يقـول بعقبهـا:** ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، **وعجبـت لمـن مُكـر به كيـف لا يفزع إلـى قولـه:** ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، **فإنّـي سـمعت الله عزّ وجلّ يقول بعقبهـا:** ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ **وعجبت...**» (أمالي الصدوق، ص6 ).

(2) سورة الأنبياء، الآية 87.

(3) سورة الأنبياء، الآية 88.

(4) سورة غافر، الآية 44.

(5) سورة غافر، الآية 45.

(6) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 15 آب ، 2011 م.

(7) الوجوديّون: هم المنادون بالفلسفة الوجوديّة (existentialism) وهي فلسفة معاصرة تؤكّد على حرّية الفرد ومسؤوليّته.

ومن هذا المنطلق فإنّ علماء النفس يقترحون على المرء من أجل الفرار من المآسي والأمراض النفسيّة الركون إلى التغافل وعدم التفكير بتلك الأمور والانشغال باللذّات والكلام والضحك والتسلية! هذه حصيلة الوصفة التي يصفها علماء النفس من أجل راحة الإنسان.

أمّا أنبياء الله عليهم السلام فهم يُقدّمون وصفة أخرى. إنّهم يقولون: «من أجل طرد ما ليس في محلّه من القلق والاضطّراب عليك أن تعرف ماهيّة هذا العالَم. عليك أنْ تعلم أنّ هذا العالم ليس هو إلاّ معبراً مؤقّتاً وهو يشبه المختبر. فمصائب الدنيا وصعابها هي مقدّمة لراحة أبديّة ولذائذ لا نهاية لها يُمكنك الظفر بها. فإنْ استطعت السيطرة على هذه المصاعب وتوظيفها على النحو الصحيح فستستطيع نيل السعادة الأبديّة. فنسبة عالَم الدنيا إلى عالَم الآخرة هو أقلّ من نسبة لمح البصر إلى تعمير مائة عام. أفيقلق الشخص الذي يعمّر مائة عام كيف ستمرّ عليه لحظة أو مقدار رمشة العين؟!

فإنْ عرف المرء ماهيّة هذا العالَم وأمّل نيل السعادة الأبديّة في العالم الأبديّ عبر أداء ما عليه من تكليف وكيف أنّه سيذهب إلى حيث لا وجود لأيّ شكل من أشكال النَّصَب والمعاناة؛ حيث: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[1]، فسوف يعدّ نفسه لتحمّل الصعوبات العابرة. فلو علم العامل أنّه إذا اجتهد في عمله من الصباح حتّى المساء فسيحصل على أضعاف الأجرة المتعارفة التي يحصل عليها العمّال، فإنْ أحبّ الظفر بهذه الأجرة فستتحوّل صعوبة العمل ومعاناته عنده إلى حلاوة. فهذا أوّل الطريق الذي يرسمه الأنبياء لدفع اضطّراب الإنسان وقلقه.

بالطبع إنّ هذا الحلّ لا يُمثّل دواء فحسب بل هو بيان لحقيقة. فمن جملة الطرق التي يتّبعها الأنبياء لعلاج أمراض البشر هي «العلاج بالحقيقة»؛ أي عندما يُدرك مخاطبهم الحقيقة فإنّه لا يعود بحاجة إلى الدواء. والآن فلنضمّ المباحث المطروحة في المحاضرة الماضية إلى هذه المسألة؛ أي: بالإضافة إلى ذلك فإنّ الله تعالى يخصّ أولئك الذين يفيدون من هدايته في حياتهم بسمات خاصّة حتّى في الحياة الدنيا[2].

## التفويض هو أنجع وصفة للراحة

إنّ أنجع وصفة في هذا الباب هي وصفة «التفويض»، وهذا ما تُبيّنه الجملة الرائعة التي يبتدأ بها كتاب شرح الأمثلة من كتاب «جامع المقدّمات» حيث يقول: «أوّل العلم معرفة الجبّار وآخر العلم تفويض الأمر إليه»، وهذه أرقى نتيجة يُمكن أن يحظى بها الإنسان من معرفة الله، فإذا بلغ المرء

(1) سورة فاطر، الآية 35.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 15 آب ، 2011 م.

هـذا المقـام فسيكون أكبر همّه هو أداء ما عليه من تكليف وهو يؤمن بأنّ هناك من يُرتّب على ذلك أفضل النتائج ويختار له أحسن الطرق. فهو يعلم عندما يُفوّض إليه أمره أنّه إذا كان المرض أصلح له ، فسيمرضه وإذا كانت السلامة أفضل له ، فهو لا يدعه يمرض أو يبقى على مرضه[1].

فـوّضـ إلـى مـلـك الـمـلـوك الأمـر فـي
أحـكـامـه وأقـبـل ولا تـك مـعـرضـا
واصـبـر عـلـى صـنـع الـحـكـيـم مـسـلـمـا
تـجـد الـشـفـا مـمـا أعـل وأمـرضـا

## التفويض لا يعني ترك المسؤولية

هـل تفويض المرء أمره إلى الله يعني أن يُخلي كاهله من أيّ مسؤوليّة ويُصبح جليس داره؟ كلا ، فكما قـد أشرنا في المحاضرة السابقة فإنّ لدينا نظامين؛ أحدهما هو النظام التكوينيّ (الحقائق الخارجيّة) وهو النظام الذي ينبغي علينا تفويضه إلى الله تعالى. والنظام الآخر هو نظام التشريع الذي عيّن الله فيه ما علينا من واجبات.

فمثـلاً إذا رأى الله عـزّ وجلّ صلاح امرئ في مرضـه، فهذه حقيقة تكوينيّة ولا بـدّ لهذا الشخص أن يفوّضـ أمـره فيها إلـى الله ويرضى بذلك. لكنّ هـذا التفويض لا يتنافى مـع أداء التكليف المتمثّل بالذهاب إلى الطبيب والتداوي، والحاصل أنّه ينبغي أن يكون الأمر بالنسبة له سيّان شُفي أم لم يَشف.

فـإذا كان نبـيّ الله إبراهيم عليه السلام قـد وصف الله تعالى فـي ردّه على النمرود بهـذا الوصف: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[2]، (ولم يقل: إذا أمرضني الله، تأدّباً بأدب العبوديّة) فلا يعني كلامه هـذا أنّ إبراهيم عليه السلام لـم يكن يذهب إلى الطبيب أو يتناول الـدواء أو يعمل بأسباب الاستشفاء، بـل كان يرى في كلّ مكان يـداً تُدير الأسباب فجاء ليهدي الناس إلى هـذا الاتّجاه. فإذا عثر المرء على هذا المصباح فلن يعود للضجر والحزن معنىً عنده: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]، فإنسان كهذا حتّى وإن بلغ الثمانين فسيكون كشابّ ينعم بكامل الحيويّة والراحة والطمأنينة ولا يعتريه أيّ همّ أو غمّ.

بالطبـع إنّ التفويض هو سبيل لتهدئـة الروح وإزالة ما ليس في محلّه من الاضطرابات والضجر والخـوف. وهو ليس بالأمـر السهل طبعاً. فشخص مثل جابر والذي اجتـاز مراحل جمّة على طريق

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 15 آب ، 2011 م.
(2) سورة الشعراء، الآية 80.
(3) سورة يونس، الآية 62.

الكمـال هو الذي يُمكنه تفويض أمره إلى الله. إذن فالمقصود من «**صحّة التفويض**» هو التفويض الذي ينبع - حقيقة - من الاعتقاد بالتوحيد، وليس ذلك الذي ينشأ عن التقاعس وعدم اللياقة[1].

## شرود الذهن أحد عوامل معاناة البدن

الحديـث إلى هذا المقطـع كان قد تناول راحة النفس. لكنّ بعض أنـواع المعاناة وعدم الراحة ترتبـط بالبدن بشكل أو بآخـر. بالطبع إنّ كلّ ما يكون له طابعٌ إدراكـيٌّ فهو مرتبط بالروح؛ فحتّى فـي عمليّة «**الإبصـار**» فإنّ الروح - في الحقيقة - هي التـي تُبصر وتُدرك. فمن حيث إنّ العين هي عضـو مـادّي فليس لها إدراك، ولا يحصـل فيها إلاّ تصوّرٌ عـن الشيء، أمّـا الإدراك فهو من فعل الروح. فإدراك الراحة، واللذّة، والمعاناة، والألم، وما إلى ذلك هي من وظائف الروح؛ فالروح هي التـي تلتذّ أو تتأذّى. أمّا بعض الأمراض فإنّها تحمل صبغـةً نفسيّة جسميّة (سيكوسوماتيا)[2]، أي تشتـرك فيهـا الروح والبدن معاً. لكنّها أحياناً تبدأ بالروح ثـمّ تنعكس على الجسم، أو على العكس أحياناً أخرى.

فهنـاك علاقـة وطيدة بين الروح والبدن. فعندما يقلق المرء مـن المستقبل لا يكون لهذا القلق علاقـة مباشـرة بالجسم ولا تظهر فـي أعضائه؛ ولكن هنـاك أنواع من الخـوف والقلق لها علاقة مباشـرة بجسـم الإنسان. ويُقال في الفـرق بين هذين النوعيـن من القلق والاضطـراب: أحدهما معانـاة وإرهـاق بدنيّ والآخر تعب واضطراب روحيّ. ولعلّ هـذا هو السبب الذي دعا الإمام عليه السلام إلـى القول: «**وَتَخَلَّصْ إِلَى رَاحَةِ النَّفسِ بِصِحَّةِ التَّفوِيضِ**» ثمّ أتبعـه بالقول: «**وَاطْلُبْ رَاحَةَ الْبَدَنِ بِإِجْمَامِ الْقَلْبِ**»[3]. فالاضطّرابات التي لها تأثير مباشر على الجسم سرعان ما يظهر تأثيرها؛ كأن يودّ المرء - على سبيل المثال - قول شيء لكنّه يُخطئ في قوله.

فـإنّ لأمثال هذه الاضطّرابات والاختلالات التـي تظهر على البدن عواملَ هي بأيدينا ونستطيع أن نتلافاهـا. وإنّ من أهمّ آثار هـذه الاضطّرابات هو شرود الذهن وانعدام التركيز؛ فإذا أراد المطالعة تنقّـل ذهنـه إلى مائة مكان، وإذا وقـف للصلاة تجوّل فكره في كلّ الوجـود. إنّ هذه الحالة المعروفة بشـرود الذهـن أو تشتّت القلـب لهي مصيبة كبرى، لكـنّ تعوُّدَنا عليها يجعلنـا لا نشعر بمدى الضرر الـذي تلحقه بنا. بالطبع هذه الحالـة لا تُسبّب مشكلة إذا كانت ضمن الحـدّ المتعارف؛ لأنّ للإنسان

---

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 15 آب، 2011 م.

(2) Psychosomatic.

(3) عن رسول الله صلى الله عليه وآله في السَّفَرجل: «**يجمُّ الفؤاد**» أي يُرِيحُه، الجمام - بالفتح -: الراحة.. وقيل: يَجْمَعه، ويُكَمِّلُ صلاحَه ونشاطه. غريب الحديث في بحار الأنوار نقلاً عن (النهاية).

شؤونـاً شتّى وله علاقة وارتبـاط بأشخاص مختلفين. لكنّها أحياناً تخرج عـن الحدّ المتعارف. يقول الإمام عليه السلام في هذا الصدد: «**إذا أردت راحة بدنك فحاول أن تركّز جيّداً وتكون حاضر الذهن**»[1].

## علاج شرود الذهن بترك الذنوب

ثـمّ يقول عليه السلام: «**وَتَخَلَّصْ إِلَـى إِجْمَامِ الْقَلْبِ بِقِلَّـةِ الْخَطَـأ**». وإذا صحّت هذه النسخة فإنّ ما أفهمـه من قولـه: «**قلّة الخطـأ**» هو «**قلّـة العصـيان**»؛ أي إذا شئت أن تكون حاضـر الذهن وتمتلك التركيـز المتعارف فاسـع لأنْ تُقلّل من معاصيك. فـإنّ لدينا طرقاً شرعيّة ومعقولـة من أجل تلبية وتأمين حاجاتنا. أمّا إذا انحرف الإنسان عن جادّة الصواب فسيواجه آلاف المنعطفات والمطبّات. فهناك مثلاً حلّ فطريّ لإشباع الغريزة الجنسيّة ألا وهو الزواج. لكنّه عندما يزيغ المرء عن المسير الصحيح فإنّه سيبتغي سبـلاً أخرى لتلبية هذه الغريزة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ ... فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾[2]، وإن إنسانـاً كهذا سيُبتلى بمختلف أشكال الاضطّـراب والقلـق وتشتّـت الذهن. فإنّ نظرة واحـدة من حرام قد تُشغل الذهـن ليوم كامل؛ فلا يلتفـت المـرء إلى صلاتـه ولا إلى سائر أعماله. أمّـا إذا صان نظره فإنّه لا يُبتلـى بكلّ هذا الشرود والتشتّت فـي الذهن. فهذا التشتّت سببه الخروج عن الجادّة السويّة للفطرة والشرع، فإذا استطاع المـرء صيانة نفسه من الوقوع في الأخطاء وارتـكاب المعاصي – وليس للسعادة الحقيقيّة غير هذا السبيـل – فسيكتشف أنّـه سيحظى بالمزيد من الراحة والطمأنينة والتركيـز وحضور الذهن، وإنّه إذا وقـع يوماً في حبائل الشيطان فسوف يرى أنّه سيُبتلى بكثير من الشرود والتشتّت في الذهن إلى درجة أنّه لا يستطيع حتّى إنجاز أعماله العاديّة، فالعبثيّة في استخدام البصر واللسان والسمع تؤدّي بالإنسـان إلـى تشتّت ذهنه وإهدار قواه بل وقد تتسبّب في الإضرار بـه أيضاً، ومن هنا يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**إذا أردت أن تُريح بدنك فاسع أن تكون حاضر الذهن ومركّزاً، وإذا شئت أن تكون حاضر الذهن وتتمتّع بالتركيز فحاول أن تُقلّل من أخطائك**»[3].

ووفقنا الله وإياكم لمراضيه ، وصلى الله على المصطفى مُحمد وآله الأطهار.

---

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 15 آب ، 2011 م.

(2) سورة المؤمنون، الآيات 5 – 7.

(3) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 15 آب ، 2011 م.

# رقّة القلب والخلوة مع اللّه

## نـــصّ الــوصـــيّــة

- قال الإمام أبو جعفر مُحمد بن علي الباقر عليه السلام موصياً صاحبه، وتلميذه النجيب جابر الجعفي:

«وَتَعَرَّضْ لِرِقَّةِ الْقَلْبِ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ فِي الْخَلَوَاتِ»(1).

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص164، باب وصايا الباقر عليه السلام.

## رقّة القلب باب كلّ صلاح

إنّ رقّة القلوب وخشوعها، وانكسارها لخالقها وبارئها منحة من الرحمن، تستوجب العفو والغفران، فإنّه ما رقّ قلبٌ لله عزّ وجلّ إلا كان صاحبه مبادراً إلى الخيرات، مشمّراً في الطاعات، وما رقّ قلبٌ لله عزّ وجلّ وانكسر إلا وجدت صاحبه أحرص ما يكون على طاعة الله ومحبّته، فما ذُكِّر إلا تذكّر، ولا بُصِّر إلا تبصّر، وما دخلت الرقّة إلى القلب إلا وجدته مطمئنّاً بذكر الله، يلهج لسانه بشكره والثناء عليه سبحانه وتعالى، وما رقّ قلبٌ لله عزّ وجلّ إلا وجدت صاحبه أبعد ما يكون عن معاصي الله عزّ وجلّ.

فالقلب الرقيق قلبٌ ذليلٌ أمام عظمة الله تبارك وتعالى، والقلب الرقيق رفيقٌ ونعم الرفيق؛ والمتمعّن في كتاب الله تعالى والسيرة العطرة لنبيّ الرحمة مُحمد ﷺ يجد أنّ الله عزّ وجلّ أخبر مصطفاه أنّ رقّة القلوب يحتاجها أحبّ العباد إلى الله، وهم أنبياؤه، وأوصياؤهم والهداة والدعاة إلى الله، وطلّاب العلم، وعامّة الناس وخاصّتهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[1]، أي لو كان قلبك قاسياً لانفضّت هذه الجموع من حولك يا رسول الله.

فصلاح أمور الدعوة إلى الله تقوم على رقّة قلب الداعي إلى الله تعالى، وإذا لم تلن القلوب لله تعالى، فلمن تلين القلوب؟ وإذا لم تذلّ القلوب لله فلمن تذلّ القلوب؟ وإذا لم ترقّ القلوب لكلام الله فلمن ترق القلوب؟ قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام «**طوبى للمنكسرة قلوبهم من أجل الله**»[2].

كن مع الله تَرَ الله معَكْ
واترك الكلّ وحاذر طمعَكْ
كلّما نابك أمر ثق به
واحترز للغير تشكو وجعك

---

(1) سورة آل عمران، الآية 159.

(2) الآمدي التميمي، غرر الحكم و درر الكلم،الفصل الثالث: في خشية الله، الحكمة 3715.

## السعي إلى تطوير حالة القلب

«مـن الأمـور الهامّـة السعي في سبيـل تطوير حالة القلـب، وجعلها إلهية، وتوجيههـا نحو الحقّ المتعالـي وأوليائـه ودار كرامته، ويتمّ هذا قطعـاً بواسطة التفكّر في آلاء الـذّات المقدّس، ونعمائه والمحافظـة على طاعته وعبادته، ولكن يجب أن لا يعتمـد الإنسان على نفسه ومساعيه، بل يستعين بالله على ذلك في جميع الأحوال، وخاصّة في حالات الخلوة مع الله بكلّ تذلّل وتضرّع وبكاء، ويطلب منـه أن يُلقـي حبّه في قلبه ويضيئه بنور محبّته ومعرفته، ويخـرج حبّ الدنيا وما عدا الله من قلبه، ومن الواضح أنّ هذا الدعاء يكون في بدء الأمر من دون لبّ، ويكون صرف لقلقة لسان، لأن مطالبة زوال حـبّ الدنيـا من القلب مع كونه مفرطاً في التعلّق بها، مشـكل جدّاً، ولكن نرجو بعد التمعّن في ذلـك فترة من الزمن، والمراقبة، وإفهام القلب النتائـج الحسنة لمحبّة الله، والنتائج السيّئة لحبّ الدنيا، أن يتحقّق ذلك إن شاء الله تعالى»[1].

## معنى رقّة القلب ومفهومها

«استمـراراً للحديـث الشريف المنقول عـن الإمام الباقر عليه السلام والـذي يُخاطب به جابر بـن يزيـد الجعفيّ يقول عليه السلام لجابر: «**مـن أجل الظفر برقّـة القلب أكثِر مـن ذكر الله في الخلوات**».

ورقّة القلب هي: حالة ينفعل فيها الإنسان بسرعة عند مواجهة بعض العوامل المثيرة للأحاسيس والمشاعر، ومن آثارها الظاهريّة ذرف الدموع.

بالطبـع إنّ عوامل ذرف الدمـوع مختلفة، فقد يعتقد البعض أنّ البكاء لا يكون إلاّ نتيجة الخوف، وهـو الخوف من نـار جهنّم حصراً. بَيْدَ أنّ للبـكاء أنواعاً؛ فقد يبكي المـرء نتيجة للفرح المفاجئ والمفـرط، فالأمّ التي فارقـت ولدها لسنوات طويلة تبكي عند لقياه لفرط فرحها، وقد ينجم البكاء عـن الحياء أيضاً؛ فإذا أهـان الإنسان امرأً مثلاً فقد يبكي عند مواجهته من شدّة خجله، وقد يكون البـكاء أيضـاً بسبـب اليأس من الحصول على نتيجـة، وعلى أيّة حال فإنّه يُقـال لحالة الانفعال في الإنسان هذه: «رقّة القلب»، وإنّ أثرها الظاهريّ هو البكاء»[2].

---

(1) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحديث الثامن والعشرون، في بيان انكشاف بعض الأحوال الغيبية على الإنسان لدى موته.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 16 آب ، 2011 م.

## القلب في القرآن الكريم

يُمكننا القول بشكل عامّ: إنّ القلب - وفقاً للمصطلح القرآنيّ - هو مركز للإدراك، ومركز للأحاسيس والعواطف في نفس الوقت. أمّا «الرقّة» فهي تتعلّق بقسم الأحاسيس والانفعالات. فهناك صنف من الناس يواجهون الأحداث السارّة - التي يُسَرّ لها الناس العاديّون كثيراً - بحالة من عدم الاكتراث واللامبالاة، ويتّصفون بالبرود الشديد عندما يتطلّب الموقف الغضب وحِدّة المزاج عادةً، وفي مجالس العزاء مثلاً لا يذرفون حتّى دمعة واحدة. هذه الحالة يُطلق عليها «**قسوة القلب**». وإنّ للقرآن الكريم تعبيراً ملفتاً عن هذه الحالة وهو قوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ﴾[1]؛ أمّا قُساة القلوب فإنّ لهم قلوباً لا تنكسر أبداً وإنّ لهم أعيناً لا تذرف حتّى دمعة واحدة. وهذه الحالة تُمثّل شكلاً من أشكال الشذوذ؛ كأن يكون لامرئ عين لكنّه لا يُبصر. فالعين أداة البصر؛ فإن كانت لا تُبصر عُلِم أنّها مصابة بمرض. وهذا - بالطبع - يختلف عن قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾[2]، فهو هنا يقصد أداة الباصرة الباطنيّة التي لا ترى الحقّ.

فالشخص الذي لا يحترق قلبه على شيء أبداً ولا تذرف عينه دمعة إطلاقاً ولا يطرأ على قلبه تأثّر بتاتاً فإنّ قلبه مريض، وهذا المرض يُطلق عليه القرآن الكريم «قسوة القلب»، وهناك عوامل مختلفة لهذا المرض، لكن ممّا لا شكّ فيه فإنّ للعوامل التربويّة أثراً في ظهوره. فرقّة القلب تحدث - بشكل طبيعيّ وفي ظروف خاصّة - لكلّ إنسان يمتلك قلباً سليماً. وبالطبع هناك اختلاف بين الذكر والأنثى من هذه الناحية؛ إذ إنّ أحاسيس النساء أقوى من الرجال، وقلوبهنّ أرقّ منهم، وهنّ أسرع إلى البكاء مقارنة بالرجال؛ بَيْدَ أنّه لكلّ جنس نصابه الطبيعيّ، ولا بدّ من ظهور هذا الأثر ضمن هذا النصاب وهذه الحدود. لكنّ السؤال هنا هو: هل ينبغي - كقيمة أخلاقيّة - أن يكون قلب المرء شديد الرقّة أم قليلها؟[3].

## القرب من الله مناط القيمة الأخلاقيّة في الإسلام

وفقاً لنظام أخلاقيّ قديم منقول عن فلاسفة اليونان فإنّ «**الاعتدال**» هو أساس القيم وإنّ جميع الصفات تُقاس بهذا الميزان. وعلى أساس هذا المعيار، فإنّه ينبغي للمرء أن يتّخذ حالة معتدلة؛

(1) سورة البقرة، الآية 74.

(2) سورة الأعراف، الآية 179.

(3) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 16 آب ، 2011 م.

فلا يكون قلبه شديد الرقّة إلى درجة الانفجار بالبكاء عند مشاهدة أيّ مشهد، ولا قاسي القلب إلى درجة عدم تأثّره بأيّ حادثة. فميزان القيمة في هذا النظام الأخلاقيّ هو الاعتدال، وكلّ ما ينحرف إلى هذا الطرف أو ذاك فهو يُعدّ إفراطاً أو تفريطاً.

أمّا مناط القيمة وفقاً للأخلاق الإلهيّة أو الإسلاميّة، فهو أرفع من ذلك بكثير. ذلك أنّ الصفات القيّمة حسب الأخلاق الإلهيّة هي تلك التي تُقرّب الإنسان إلى الله تعالى. أمّا في الأخلاق الفلسفيّة المذكورة فإنّ العلاقة المذكورة مقطوعة وإنّ الارتباط مع الله غير مراعىً فيها.

وبناءً عليه فإنّ رقّة القلب لا تكون ذات قيمة في الأخلاق الإسلاميّة إلاّ إذا ظهر أثرها فيما يتعلّق بالله عزّ وجلّ وفي القرب منه. فإنّ ما يكون مفيداً للإنسان المؤمن حتماً هو أن لا يكون غير مبال إذا ذكر عظمة الباري تعالى، أو عفوه وتجاوزه، أو ذكر عذابه. يقول القرآن الكريم في ذكر إحدى صفاته: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾[1]؛ فإنّ من جملة صفات كلام الله هي أنّه إذا سمعه المؤمنون اقشعرّت جلودهم وشعروا برعدة في أوصالهم.

هذه الحالة العاطفيّة هي حالة انفعاليّة يظهر أثرها على الجلد. كما أنّه يقول تعالى في صفات المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾[2]، فمن خصائص المؤمن هي أنّ قلبه يرتجف إذا ذُكر الله عنده؛ وهي علامة الإيمان. فلا بدّ لقلب المؤمن أن يشعر بالحقارة في مقابل عظمة الباري عزّ وجلّ. بل يتحتّم على المؤمن أن تنتابه حالة الخجل وأن تسيل دموعه عندما يتذكّر أنعم الله عليه لا سيّما عندما يغيثه الله وينصره مع كلّ ما هو عليه من تقصير وغفلة.

فقد جاء في الدعاء الوارد بعد زيارة الإمام الرضا عليه السلام ما نصّه: «**ربِّ إنّي أستغفرك استغفار حياء**»[3]؛ فأوّل ما يستغفر العبد ربّه هو الاستغفار الناشئ عن الحياء؛ فكأنّه يريد أن يقول: إلهي! إنّني لأستحي أن أواجهك أساساً. فبمجرّد أن ينوي العبد – مع كلّ أعماله المخزية وما يتّصف به من عدم الأهليّة – الجلوس بين يدي ربّه الرؤوف الرحيم الرحمان تنحدر دموعه على وجنتيه قبل أن يذكر جهنّم والعذاب.

وفي هذه الحالة سيدعوه الله عزّ وجلّ لضيافته ويضيّفه. وكذا عندما يُنذر الله عبده من عذاب الآخرة فعلى الأخير أن يحمل إنذاره على محمل الجدّ. فعدم الاكتراث لهذه الإنذارات هو عدم اكتراث لله جلّ وعلا. فإن تلا المرء هذه الآيات من دون أن توقع في قلبه أيّ تأثير فليعلم أنّه مصاب

(1) سورة الزمر، الآية 23.

(2) سورة الأنفال، الآية 2.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج99، ص56.

بقسوة القلب. فالمؤمن يتأثّر عندما يلتفت إلى هذه الآيات وتجري دموعه من عينيه: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾[1] و﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[2]؛ فعندما تُتلى آيات القرآن الكريم على المؤمنين الصالحين يهوون بوجوههم على الأرض وتلتصق جباههم بها من أثر الخضوع والخشوع.

على كلّ حال فقد وهب الله الإنسان قلباً كي تظهر هذه الآثار منه في الوقت المناسب. أمّا إذا اقتصر التفاتنا أثناء قراءة القرآن الكريم، أو حتّى تلاوة آيات العذاب، إلى الصوت والأجهزة الصوتيّة من دون أن ننتبه بتاتاً إلى الهدف من نزول تلك الآيات أو إلى معانيها فسنُبتلى بقسوة القلب.

إذن فرقّة القلب المطلوبة للإنسان المؤمن هي ما يحصل في مثل هذه الحالات، وبشكل عامّ فإنّ الاتّصاف برقّة القلب من دون الوقوع في الإفراط والتفريط هي حالة حسنة، لكنّها لا تُعدّ قيمة إسلاميّة إلاّ إذا ارتبطت بالله جلّ وعلا»[3].

## السبيل لمعالجة قسوة القلب

فما العلاج إذن إذا ابتُلينا بقسوة القلب؟ يُقدّم إمامنا الباقر عليه السلام النصح لجابر في هذا الصدد فيقول: «**وَتَعَرَّضْ لِرِقَّةِ الْقَلْبِ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ فِي الْخَلَوَاتِ**»؛ فإنْ أردت حصول الرقّة في القلب فأكثر من الذكر في الخلوات. والمراد من الذكر هنا هو ما يكون في مقابل الغفلة، أو خصوص الالتفات القلبيّ، أو الذكر اللفظيّ المقترن بالالتفات القلبيّ. فلا بدّ للقلب من التذكّر.

قال مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**سبعة يُظلّهم الله عزّ وجلّ في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه... وفي آخره:.. ورجل ذكر الله عزّ وجلّ خالياً، ففاضت عيناه من خشية الله عزّ وجلّ**»[4].

## محاربة حالة الغربة عن الذّات

«قد ينشغل الإنسان أحياناً بما هو خارج عن وجوده إلى درجة الغفلة عن نفسه وعن سعادته وشقائه. يقول القرآن الكريم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[5]، فهناك آيات إلهيّة كثيرة في هذا الكون لكنّ الناس يمرّون أمامها من دون أن يعيروها أيّ أهمّية.

---

(1) سورة الإسراء، الآية 109.

(2) سورة الإسراء، الآية 107.

(3) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 16 آب ، 2011 م.

(4) الشيخ الصدوق، الخصال، ج2، ص 243-244.

(5) سورة يوسف، الآية 105.

بل وقد يصل الأمر إلى نسيان حقيقة أنفسهم أيضاً: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[1]، يُقال في علم النفس الحديث: هناك من يُصاب بنسيان النفس نتيجة تعلّقه بالمال والجاه والأوهام والخيالات، فهو ملتفت إلى كلّ شيء سوى السؤال التّالي: أيّ موجود هو؟ من أين أتى وأين هو؟ ما الذي عليه صنعه وإلى أين يتعيّن عليه الذهاب؟

وبتعبير آخر: يُصبح غريباً عن ذاته. ومن علامات الغربة عن الذّات هي الخوف من النفس. فعندما يكون المرء وحيداً ينتابه الخوف والوحشة فيحاول التلهّي بشيء مّا، وإذا حُلّلت هذه الحالة بدقّة فسيُكتشَف أنّ هذا الشخص لا يريد فهم نفسه أو معرفتها أساساً، وسيكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[2].

فمع أنّ الإنسان يُحبّ نفسه أكثر من أيّ شيء آخر، إلاّ أنّه لا يريد التفكير في ذاته. وحالة الغفلة هذه تؤدّي إلى ضعف خصوصيّات القلب؛ فيضعف ويضمحلّ إدراك الإنسان للحقائق ويمتلئ عقله وذهنه بالتفاهات، فهو في هذه الحالة يُفكّر بكلّ شيء إلاّ بنفسه، وتبعاً لتفاهة العقل والذهن تضعف الأحاسيس والعواطف أيضاً، فلا يعود يتأثّر كثيراً بأحوال الآخرين، ومن أجل إزالة هذه الحالة، على الإنسان أن يُقلّل من التفاته إلى الخارج ويلتفت أكثر إلى داخله وذاته، وهنا توجد مسألتان:

الأولى: هي عندما يلتفت المرء إلى نفسه، فإنّه ينتبه إلى الزاوية التي تفصله عن ربّه، فأصل جميع كمالات الإنسان يكمن في تقوية هذه العلاقة، وإنّ تعزيز هذه العلاقة ينتهي إلى القرب من الله عزّ وجلّ. كما أنّ أسمى درجات كمال الإنسان هي في قربه من ربّه؛ ولذا فعلى الإنسان أن يلتفت إلى هذه العلاقة. الثانية: هي أن يُبعِد عن نفسه ما يُعيق هذا الالتفات، والخلوة هي أفضل فرصة لذلك؛ إذ لا ينبغي أن نتوقّع من المرء التركيز، وليجدَ ذاته وهو بين الناس»[3].

## الخلوة في جوف الليل هي أفضل فرصة

«يقول الإمام الباقر عليه السلام: إذا أحببت أن تكون رقيق القلب فاسعى لأنْ تطرد الغفلة عنك، وذلك عبر كثرة الذكر والالتفات، ومن أجل أن تُحافظ على حالة الالتفات، وأن لا تسمح للعوامل الخارجيّة بأن تصرفك عن نفسك، فكن من أهل الخلوة بالله!

(1) سورة الحشر، الآية 19.

(2) سورة الحشر، الآية 19.

(3) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 16 آب ، 2011 م.

فمـن المناسـب جدّاً أن يُرتّب المرء لنفسه خلال اليوم والليلـة - لا سيّما أثناء الليل - برنامجاً للخلـوة: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾[1]؛ ففتـرة الليل هي أكثر استقامة وثباتـاً وتأثيراً، فعلى الإنسـان أن يخلـو بنفسه فـي الليل ويدرس علاقته بربّـه، فكلّما أطال التفكير فـي هذا الأمر ازداد قلبـه رقّة، فقد جاء في الخبر عن رسول اللّه ﷺ: «**عوّدوا قلوبَكم الرقّة**»[2]، والتعبير بـ «**عوّدوا**» هنا ينطوي على التفاتة.

فالأمـور البدنيّـة تبـدأ عادة من القليـل حتّى يتعـوّد الإنسان عليهـا تدريجيّاً فيتمكّـن فيما بعد مـن إنجاز أعمال أضخم. والرياضيّـون خير مثال على ذلك. والقضيّة ذاتهـا تنطبق على المسائل المعنويّة؛ فإذا رغب المرء في اكتساب حالة رقّة القلب في الخلوات فلا ينبغي أن يظنّ أنّه سيتحوّل منـذ اليـوم الأوّل حتمـاً إلى واحد من بكّائي العالـم، بل عليه أن يعوّد نفسه علـى هذه الحالة بشكل تدريجيّ.

عليه أن يُفكّر في الموضوعات التي توجب خجل وحياء الإنسان من اللّه سبحانه، فلو طلب صديق الإنسان الحميم منه شيئاً قائلاً: امتنع عن هذا الفعل لأجلي، لكنّ هذا الإنسان فعل ذلك الفعل ظنّاً منـه أنّ صديقه لا ينظر إليه، فاكتشف فجـأة أنّه يُشاهده، فأيّ حال سيطرأ عليه يا تُرى؟ فما بالك بـاللّه العظيـم الشأن الذي لا يملك الإنسان شيئاً إلاّ منه، وقد طلب من الإنسان أمراً لا يصبّ إلاّ في صالـح الإنسان نفسه، وليس له من أثر عليه تعالى علـى الإطلاق؛ لكنّ هذا الإنسان نسي ربّه وأصرّ بـلا حيـاء على ما نهاه اللّه عنه، فإن التفت إلى أنّ اللّه حاضـر وناظر وهو يراه، فإلى أيّ حدٍّ ينبغي أن يشعر بالخجل؟! فإذا خلى الإنسان بنفسه وجسّد هذه الحالة في مخيّلته، فإنّ لذلك أثراً عظيماً. إذن عليه أن يُمارس هذا التمرين باستمرار، ويعوّد نفسه عليه، وعندها ستحصل عنده حالة البكاء والتأوّه والأنين شيئاً فشيئاً»[3].

## الخلوة القلبية

والمقصـود من الحديث الشريف الذي يقول الحقّ تعالى فيـه أنا جليس من جالسني.. هذه هي الخلـوة القلبية، وهذه الخلـوة هي أفضل الخلـوات، والخلوات الأخر مقدّمة لحصـول هذه الخلوة، فمـن اتّصف بجميع مراتب التقوى يسلم دينه وعقلـه وروحه وقلبه، وجميع قواه الظاهرة والباطنة،

(1) سورة المزمل، الآية 6.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج70، ص81.

(3) من محاضرة لسماحة آية اللّه الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 16 آب، 2011 م.

وتسلم حفظته الموكلة به، ولا تملّ ولا تضجر ولا تتوحّش منه، ومن كان بهذه الصفة تكون معاملاته ومعاشرتـه مـع صديقه وعـدوّه بطريق السلامة. بل ينقطـع جذر العداوة عن باطـن قلبه، وإن كان الناس يُعادونه[1].

وقال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**اشحن الخلوة بالذكر، واصحب النعم بالشكر**»[2].

فاحذر أيها القارئ الكريم ممّا يُسبّب لك قسوة القلب، وأكثِر من ذكر مولاك، وسله في خلواتك شفـاء قلبك. رزقنا الله وإيّاكم رقّة القلـب وسكينته وإخباته لربّه، وتذلّل بين يديه تعظيماً وإجلالاً، فإن ذلك منزلة رفيعة من منازل المؤمنين، تتقاصر أمامها نفوس الضعفاء، وأعاذنا الله وإيّاكم من القسوة، وصلى الله على أرحم الخلق سيّدنا مُحمد وآله الطيّبين الطاهرين.

(1) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنوية للصلاة، ص554 – 555، الفصل الثاني آداب السلام عند الصادق عليه السلام.

(2) الآمدي التميمي، غرر الحكم و درر الكلم،الفصل الثاني: في الذكر، الحكمة 3606.

# الحزن ونور القلب

## نـــصّ الـــوصـــيّـــة

- قال الإمـام أبـو جعفر مُحمد بن علي الباقر عليه السلام موصياً صاحبه، وتلميذه النجيب جابر الجعفي:

«وَاسْـتَجْلِبْ نُورَ الْقَلْبِ بِدَوَامِ الْحُزْنِ»[1].

---

(1) العلامـة المجلسي، بحـار الأنوار، ج75، ص164، باب وصايا الباقر عليه السلام.

## منزلة القلب

القلـب ملـك الأعضاء، كما في الحديث النبويّ المرويّ عن رسول اللّه ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسـد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدَت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب**»[1]. وعن الإمام الصـادق عليه السلام: «**أعلم: أنّ منزلة القلب من الجسـد بمنزلة الإمام مـن الناس الواجب الطاعة عليهم، ألا ترى أنّ جميع جوارح الجسد شرط للقلب وتراجمة له مؤدية عنه**»[2].

والقلـب لغة: أصلان صحيحان، أحدهما يدلّ علـى خالص الشيء وشريفه، فالأول قلب الإنسان وغيـره، سُمّي به لأنّـه أخلص شيء فيه وأرفعـه. وخالص كلّ شيء وأشرفه قلبـه[3]، وهو محلّ نظر الربّ تبارك وتعالى كما جاء في وصية النبيّ الأكرم ﷺ لأبي ذرّ الغفاري رضي اللّه عنه: «**إنّ اللّه لا ينظر إلى أجسـامكم ولا إلى صـوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[4]. وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**قلوب العباد الطاهرة مواضـع نظر اللّه سـبحانه، فمن طهّر قلبه نظر اللّه إليه**»[5]، وقال سيّد الأنبياء ﷺ: «**إذا طاب قلب المرء طاب جسده، وإذا خبث القلب خبث الجسد**»[6].

## للقلب مرآة يُرى الكون ضمنها

قد جعل اللّه تعالى مدار السعادة أو الشقاوة على القلب، فإذا مُلئ القلب إيماناً وتصديقاً وفقهاً وإدراكاً لمـراد اللّه ومـراد الذيـن عصمهم اللّه عليهم السلام كان ذلك دليل الصحـة والسلامة، وإذا لم يتعهّده صاحبه بذكر اللّه تعالى ومراقبته، ودوام الخشية منه، فإنّ الشهوات سرعان ما تتسرّب إليه، وتبدأ بوادر المرض تغزوه بواسطة المعاصي والذنوب والمخالفات فيمرض القلب.

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 58 ص 23.

(2) الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج1 ص 109.

(3) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج5، ص 17، طبعة دار الفكر 1979 م.

(4) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص 536، الطبعة 1: دار الثقافة، قم.

(5) الآمدي التميمي، غرر الحكم و درر الكلم، ص 501، طبعة دار الكتاب الإسلامي، قم.

(6) الشيخ الصدوق، الخصال، ج 1 ص 31.

قال إمام المتّقين عليه السلام: «**أشدّ من مرض البدن مرض القلب، وأفضل من صحّة البدن تقوى القلوب**»[1]. فالقلب يمرض كما يمرض البدن، ويصدأ كما تصدأ المرآة، وجلاؤه بالذكر كما أفاد مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ الله سبحانه جعل الذّكر جلاء للقلوب**»[2]، مطلق الذكر من التسبيح والتهليل والتّحميد والدّعاء والمناجاة وتلاوة القرآن ونحوها، فإنّ المداومة عليها توجب صفاء القلب ونوره وجلاءه، وطهارته ونقاءه من ظلمة الذّنوب ورين المعاصي، فيُصبح كالمرآة المجلوّة الّتي ليس عليها شيء من الكدر، فيرى ببصيرته ما لا يراه الناظرون، والبصيرة هي نور القلب الذي يستبصر به كما أنّ البصر نور العين الذي به تبصر، وقال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**عليك بذكر الله، فإنّه نور القلب**»[3]. وإذا لم يتدارك العبد ويُبعد قلبه عن أمراض القلوب، ويصون نور الْقَلْب من أن تطفئه ظلمة المعصية، فإنّ القلب سيُصاب بعدد من العقوبات حيث يقسو ويشتدّ ويغلف ويطمس، ويقفل ويطبع عليه ويزيغ عن الحقّ، وعندها تكون حالة موت القلب.

رأيتُ الذنوب تُميت القلوب
وقد يورث الذلّ إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب
وخير لنفسك عصيانها

وقد أرشدنا أمير المؤمنين لما يُمحّص الذنوب، فقال عليه السلام: «**حزن القلوب يُمحّص الذنوب**»[4].

## معنى نور القلب ومفهومه

«للقلب – وفقاً للاصطلاح القرآنيّ والروائيّ – بُعدان مختلفان على الأقلّ؛ البعد الإدراكيّ، والبعد المَيليّ. يقول القرآن الكريم في البعد الإدراكيّ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[5]، ومن الواضح أنّه ليس المقصود من العمى هنا العمى الظاهريّ، وإلاّ فمن المسلَّم أنّ العين الظاهريّة تعمى، بل يراد منه عمى القلب. إذن فالقرآن الكريم يرى أنّ العمى الحقيقيّ هو عمى القلب. واستناداً إلى هذه الآية، فالقرآن يرى أنّ للقلب عيناً، وهي تكون مفتوحة تارةً فترى الحقائق، وتكون عمياء تارةً أخرى. وبناءً على ما جاء في كتاب الله العزيز فإنّ إحدى ميّزات هذه

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج19 ص 337، طبعة 1 : مكتبة المرعشي النجفي، قم.
(2) الآمدي التميمي، غرر الحكم و درر الكلم، ص 235 / 197، طبعة دار الكتاب الإسلامي، قم.
(3) م.ن، ص 66.
(4) م.ن، ص 353.
(5) سورة الحجّ، الآية 46.

العيـن هي أنّها إذا أصبحت عمياء في الدنيا فـإنّ صاحبها سيُحشر أعمى في مجال عين القلب في الآخـرة[1]؛ وإنّـه لأمر يدعو لشديد الأسـف والحسرة أن يُحشر المرء في مجال يعلـم أنّ فيه أموراً كثيرة تستحقّ الرؤية لكنّه لا يستطيع مشاهدتها بسبب العمى.

استناداً إلى ما جاء في الأحاديث الشريفة فإنّ لهذا القلب أذناً أيضاً، بل ونورانيّة وظلمة كذلك. وللنـور في القرآن الكريم طيف واسع مـن الاستعمالات؛ فالقرآن الكريم يُعبّر عن نفسه بالنور؛ كما في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[2]، وهو يُعرِّف الله جلّ وعلا بأنّه نور السمـاوات والأرض: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3]، ويتحدّث في آية أخـرى عن النور الذي جُعل للمؤمنين فيقول: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[4] وهـذا النور هو من نور القلب، وإلاّ فالجميع - بما فيهم المؤمنون والكفّار - يتمتّعون بالأنوار المادّية.

وهناك آية أخرى تقول في هذا الصدد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[5]؛ بمعنـى أنّكـم إذا آمنتـم بالنبـيّ إيماناً حقيقيّاً فسيجعل الله لكم نوراً يُضيء لكم دربكم. وأمثال هؤلاء لا يكونون في حيرة من أمرهم، بل يُشخّصون تكليفهـم فـي الوقت المناسب. وهذه المباحث تُنبئ عن حقائـق لا بدّ أن نؤمن بها وأن نعلم بأنّ الله تعالـى يُسبغ على باطن الإنسان المؤمن مـن البركة والمعنويّات والكمال ما له حكم النور في مقابل الظلمـة. فلـو كان امرؤ يقود سيّارة ليـس فيها مصابيح في طريق محفوفـة بالمخاطر وسط ظلام حالـك فإنّه لا يمضـي عليه وقت طويل حتّى يهلك. وكذا الطريق التي على باطن الإنسان أن يقطعها صـوب الحقيقة فإنّها بحاجة إلى النور وإنّ الله يَهَب هذا النور لبعض عباده. لكنّ بعض الناس يقتل الاستعداد الكامن في داخله لانبعاث هذا النور ويُفرّط باستحقاقه للظفر به فتكون النتيجة أنّه يتيه في غياهب الظلمات.

يُعلم بالرجوع إلى الآيات الآنفة الذكر أنّ مراد الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام من نور القلب هو إمّـا عيـن هذه الحقيقة التي تُشير إليها الآيات الشريفة المذكـورة أو شيء من هذا القبيل. وإنّ من آثار نورانيّة القلب هو أن يتمكّن المرء من التمييز بين الحقّ والباطل، وهذه القدرة على التمييز هي

(1) ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء، الآية 72).
(2) سورة المائدة، الآية 15.
(3) سورة النور، الآية 35.
(4) سورة الأنعام، الآية 122.
(5) سورة الحديد، الآية 28.

غايــة في النفاسة والقيمة بالنسبــة للإنسان المؤمن. وهنا يُبيّن الإمام عليه السلام لجابر طريقاً للظفر بهذه النورانيّة، فيقول: «**واستجلِب نور القلب بدوام الحزن**»![1].

## أسئلة حول الحزن

«يقول الإمام الباقر عليه السلام في هذا المقطع من الحديث: «واستجلب نور القلب بدوام الحزن»!. بمعنى: إذا أردتَّ أن يكون قلبك نورانيّاً فاجهد لكي تكون دائم الحزن.

ثمّة أسئلة تتبادر إلى الذهن هنا سنتعرّض للإجابة عليها بمقدار ما سيوفّقنا الله عزّ وجلّ إليه. من هذه الأسئلة ما يلي: ما هو القلب؟ وما معنى نور القلب؟ ما مراده عليه السلام من قوله: «**واستجلب نور القلب بدوام الحزن**»؟ على ماذا يكون هذا الحزن؟ وهل كلّ حزن هو مطلوب؟ هل يريد الإسلام مــن الناس أن يعيشوا في حزن وكآبــة مستمرّين، أم يريدهم مسرورين وينعمون بالحيويّة؟ وأخيراً: ما هي العلاقة بين الحزن ونور القلب؟

## هل الحزن مُحبَّذ أم غير محبّذ؟

«هــل ينبغــي للمرء يا ترى أن يكون حزيناً باستمرار؟ بالطبع فإنّ الإنسان الحزين لا يتمتّع بالحيويّة المطلوبــة لممارسة العمل والنشاطات المختلفة؛ إذن فهل يريــد الله عزّ وجلّ أن يبني مجتمعاً يُسيطر الحــزن على جميع أفــراده؟ إنّ كلّ الجهود التي تُبــذل في الثقافة العالميّة المعاصــرة تهدف إلى خلق حالة من البهجة والسرور للبشر. وإنّ العلوم الإنسانيّة – لا سيّما علم النفس – تؤكّد على ضرورة تنشأة إنســان مبتهــج. وكأنّ وجود الحزن والغمّ والأسى في وجود الإنسان هو أمر غير نافع ومنحرف. هذا ما تذهــب إليه الثقافة العالميّة. فهل يتحتّم علينــا أن نتّخذ في مقابل هذه الثقافة موقفاً مناهضاً فنقول: نحن لا نُحبّذ الفرح والسرور بتاتاً، فالبهجة أمر سيّئ، وعلى الإنسان أن يعيش في حزن وأسىً دائمين؟!

العلوم الإنسانيّة المتوفّرة حاليّاً، ونخصّ بالذكر منها علم النفس، هي بقايا لعلم النفس السلوكيّ الأمريكــيّ والغربيّ. فجميع هذه العلوم مبنيّة على الأصــول والمبادئ المادّية، وكما قال قائد الثورة المعظّم مراراً: إنّها مبنيّة على الأسس المناهضة للإسلام وليس الأسس غير الإسلاميّة، فإنْ قُلنا: إنّ الإســلام يدعــو إلى الفرح، قالوا: إنّكم إذن تذهبون إلى مــا نذهب إليه نحن. وإذا قلنا: الإسلام يُثني على الحزن ويتعيّن على الإنسان أن يكون دائم الحزن، فهذا خلاف الفطرة تماماً. فهل خُلِقنا لنكون حزينين يا ترى؟!

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 17 آب ، 2011 م.

إذن لا بـدّ مـن أجل حـلّ هذه المسألة أن نبدأ مـن جذورها، فنقول: ما هو الحـزن أساساً، وكم هـو عـدد أنواعه؟ كيـف ينشأ الحزن؟ وهل كلّ حزن هـو محبَّذ؟ أم إنّ كلّ حزن هـو غير محبَّذ؟ ما هـو الحـزن الذي تمتدحه هذه الرواية وتعدّه من عوامل نورانيّـة القلب؟ وهل يتنافى هذا الحزن مع أشكال السرور الأخرى؟»[1].

## فعل الله لا تنقصه الحكمة

«أوّلاً استناداً إلى الرؤية الإلهيّة والتوحيديّة فإنّه ما من شيء إطلاقاً أودعه الله في وجود الإنسان بحيـث يكـون لغواً بل لا بدّ أنّه ينطوي على حكمة. فقد خلق الله للإنسان الضحك كما خلق له البكاء وإنّ كلاًّ منهمـا مطلـوب في محلّه المناسب وضروريّ ومفيد أيضاً للإنسان. وجلّ المشكلة يكمن في أنّه: ما هو محلّهما المناسب؟ فالشهوة – على سبيل المثال – تدفع بالإنسان في الظروف العاديّة إلى حدّ الحيوانيّة، غير أنّها إذا انعدمت انقرض النسل البشريّ بالكامل. لذا فإنّ وجود الشهوة نعمة ولا بـدّ أن تُستعمـل في محلّها المناسب ولا ينبغي استخدامها بشـكل غير مناسب. إذن فوجود الحالات المتضـادّة في الإنسـان مفيد وضروريّ ويتعيّن عليه استخدامها في سبيـل تكامله. فالقرآن الكريم يستخـدم أسلوب الوعد والوعيـد لدعوة الإنسان إلى الصالحـات؛ فيقول مثلاً: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾[2]؛ أي: إنّ الذيـن يمتثلـون لأوامـر الله تعالى سوف لن يُبتلوا بالحـزن في يوم القيامة. ويُعلم من هذه الآية ونظائرها أنّ حالة الحزن ليست مطلوبة ومحبَّذة دائماً. وفي المقابل فإنّ إدخال السـرور إلى قلـب المؤمن قد عُدّ أمراً حسناً ومحبَّذاً؛ ممّا يُفهم منـه أنّ السرور والفرح للمؤمن هو أمر مطلوب حتّى في الدنيا»[3].

## اختلاف الرؤية الإلهيّة عن الرؤية المادّية

«إذن كيف لنا – بالالتفات إلى ما مرّ – أن نجمع بين هذا المبحث والأحاديث التي تمتدح الحزن؟ طبقـاً للمدارس غير التوحيديّة فإنّ أهداف الحياة تنحصر فـي النتائج الدنيويّة دائماً وإنّ الأشياء المُرضية للإنسان هي التي تُشكّل الغاية من العيش. وانطلاقاً من هذه الرؤية فإنّ غاية ما يوصي به علماء النفس كمنهج للحياة هو أن يكون المرء في بهجة مستمرّة وأن يعرف جيّداً كيف يوفّر أسباب

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 17 آب ، 2011 م.
(2) سورة الأنبياء، الآية 103.
(3) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 17 آب ، 2011 م.

السعادة لنفسه. والقرآن الكريم يقول على لسان هؤلاء: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾[1]، ومن البديهيّ أنّ المرء عندما لا يُفكّر إلاّ بالحياة الدنيا فإنّه لن يطلب من أمور الدنيا ما يجلب له الهمّ والحزن، لأنّ ضالّته فيها هي السعادة والراحة.

لكنّه وفقاً للرؤية التوحيديّة فإنّ كلّ ما في الدنيا يُنظَر له كأداة ولا يكون هدفاً بذاته. فحُسن وقبح الأمور الدنيويّة يرتبط بما تتركه من أثر على الحياة الأبديّة. وإنّ كلّ الأمور الدنيويّة لها أثر – بشكل أو بآخر – في سعادة المرء الأبديّة وليس منها ما هو لغوٌ على الإطلاق، بشرط أن تُستخدم في موضعها المناسب. فإذا شعرنا بالسرور أو أحسسنا بالحزن في المحلّ المناسب، فسيؤثّر ذلك على سعادتنا الأبديّة. إذن فكلّ واحد من السرور والحزن محبَّذ بشرط أن يكون في الموضع المناسب؛ فلا حزن هذه الدنيا غير محبَّذ ذاتاً ولا بهجتها. ومن هنا يقول القرآن الكريم بخصوص من يجعل من سرور هذه الدنيا هدفاً ويعدّه أصلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[2]؛ أي إنّ الله لا يُحبّ الذين لا يُفكّرون إلاّ بالفرح والسرور الدنيويّين. ومن هنا فإنْ وُجد نوع من البهجة بحيث يكون وسطاً بين الحالتين ولا يؤثّر على سعادتنا لا بالسلب ولا بالإيجاب، فهي بهجة مباحة. أمّا إذا كان السرور أو الحزن مؤثّراً في سعادتنا الأبديّة ومن النوع الذي يُقرّبنا إلى رضا الله فهو مطلوب ومُستحبّ».[3]

## الحزن على الدنيا أم على الآخرة؟

الحزن الناجم عن ضياع اللذائذ الدنيويّة ليس محبّذاً بتاتاً ولا يؤدّي إلى سعادة الإنسان، بل يقف حجر عثرة في طريق سعادته. فالإنسان الحزين يفتقر إلى القوّة على ممارسة أيّ عمل أو نشاط ولا تحصل له حالة حضور القلب أثناء العبادة. ولا ريب أنّ حزناً كهذا لا يطلبه الإسلام ولم يوصِ به أبداً. لكن ما حكم الحزن على الآخرة؟

هناك عوامل مختلفة من شأنها أن تورث الحزن من أجل الآخرة؛ فتفكير المرء بمضيّ عمره وتفريطه بالفُرَص، وتفكيره بأضرار المعاصي على آخرته، وبالحرمان من مقامات أولياء الله الرفيعة يجعله في حزن عميق. هذا النمط من الحزن يدفع الإنسان إلى تجنيد طاقاته للإفادة ممّا تبقّى من الفرص ومعرفة قدر عمره والعمل للآخرة أفضل من ذي قبل. فهل يُمكننا أن نقول إنّ حزناً كهذا ليس مطلوباً؟ فاغتمام الإنسان بسبب ذنوبه وعقوباتها سيدفعه إلى بذل قصارى جهده للتكفير

(1) سورة الأنعام، الآية 29.

(2) سورة القصص، الآية 76.

(3) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 17 آب ، 2011 م.

عنها وتركها. فمثل هذا الحزن محبّذ لأنّه يقود إلى عمل أكثر ونشاط أكبر، وهو لا يُشبه الحزن على الأمور الدنيويّة الذي يورث الاكتئاب والتعاسة، بل إنّه يُشكّل عاملاً لرقيّ الإنسان وسموّه.

فـإذا حزن المرء اليوم على تفويت فرصة فسيدفعه حزنه هذا غداً إلى الإفادة بشكل أفضل من عمـره. فإن تكرّر هذا الحـزن في يوم غد أيضاً فسيكون سبباً لاستعداده فـي اليوم الذي يليه. فإذا استمـرّ هـذا الحزن ما دام المرء على قيد الحياة فسيكون مدعـاةً لأنْ يستفيد أكثر من كلّ يوم من عمـره وينـال المزيد من الكمالات. لهذا فكلّمـا زاد حزن الإنسان على ماضيـه ازداد نشاطه ورقيّه وتكاملـه. إذن فالمقصـود من «**دوام الحزن**» هو هـذا الحزن. بطبيعة الحـال إذا رحل المؤمن عن هـذه الدنيا فلن ينتابه أيّ حزن؛ إذ يقول عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1]؛ فالملائكة تتنزّل على أمثال هؤلاء في ساعة الموت أو لربّما قبل هذه الساعة قائلة لهم ذلك وأنّكم من الآن فصاعداً ستكونـون في سرور تامّ وطمأنينة كاملة. فالمؤمن لا يغتمّ على ترك الدنيا، لأنّه يرى نعماً أعظم قد هيّأها الله تعالى له.

يقـول العليّ القدير: إنّ الحكمـة من تذكيرنا إيّاكم بوجود القضاء والقدر وقولنا: كلّ ما يقع إنّما هو مكتوب في كتاب: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[2] - الحكمـة من ذلك هي: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[3]. نفهم من ذلك أنّه لا قيمة لفرح الدنيا وحزنها، إلاّ أن يكون وسيلة لسعادة الإنسان في الآخرة[4].

## الجمع بين الحزن والفرح

«الحـزن مـن أجل الآخـرة لا يتنافى بتاتاً مع باقي المسـرّات. فإنّ من ميـزات الإنسان أنّه خُلق بهذه الصورة بحيث من الممكن أن يكون حزيناً وفرحاً في آن واحد، وهو أمر عجيب. فمن حيث إنّ الإمام الحسين عليه السلام قد بلغ أعلى المقامات بشهادته فنحن فرحون، لكنّ ذلك لا يتنافى مع حزننا ولطمنـا على رؤوسنا وصدورنا على ما نزل بـه وبأهل بيته عليهم السلام من المصائب. بل وإنّنا مسرورون مـن بكائنا عليهم أيضاً. وهذا الأمر ليدعو إلـى العجب حقّاً؛ وهو أن يبكي الإنسان ثمّ يفرح لبكائه؛ فهو فرِح لأنّ الله سبحانه قد وفّقه لإحياء عزاء أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

---

(1) سورة فصّلت، الآية 30.

(2) سورة الحديد، الآية 22.

(3) سورة الحديد، الآية 23.

(4) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 17 آب ، 2011 م.

فالحزن من أجل الآخرة لا يتنافى على الإطلاق مع المسرّات التي يرضاها الله جلّ وعلا، فالذي يُنجز تكاليفه الدنيويّة، فإنّه سيشعر في أعماق قلبه بالحزن حتّى في المواقف التي تستلزم السرور والبهجة واللذّة الدنيويّة، وحزنه هذا نابع من حرمانه من التمتّع بالمزيد من الكمالات الأخرويّة التي نالها أولياء الله».

## العلاقة بين دوام الحزن ونور القلب

«أمّا السؤال الأخير فهو: ما العلاقة التي تربط دوام الحزن بنور القلب؟ لقد علمنا بأنّ البُعد الإدراكيّ لقلب الإنسان قد تُصيبه العتمة أحياناً، وقد يصل إعتامه إلى درجة عمى القلب أيضاً. والعلّة من وراء هذه العتمة والظلمة هي ارتكاب المعاصي والغفلة، وإنّ روح جميع هذه الأمور تكمن في حبّ الدنيا. أمّا إذا كان الإنسان ذاكراً للموت وحزيناً بسبب تفريطه بالفرصة تلو الفرصة فإنّ هذه الحالة ستُغلق الباب أمام وساوس الشيطان وتفتح عين قلبه وأذنه وتجعل قلبه نورانيّاً. فآفّة نور القلب هي حبّ الدنيا والتدنّس بالآثام واللذائذ الدنيويّة. والمراد من الدنيا هنا هو كلّ ما لا يُحبّه الله عزّ وجلّ؛ وإلاّ فإنّ من لذائذ الدنيا ما هو واجب ويُثاب المرء عليه أيضاً.

إذن فدوام الحزن إنّما يزيد من نورانيّة القلب من جهة أنّه يحفظ الإنسان من وساوس الشيطان»[1].

وفّقنا الله وإيّاكم لمراضيه، وجنّبنا الله وإيّاكم معاصيه، وصلى الله على سيدنا مُحمد وآله الطاهرين.

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 17 آب، 2011 م.

# الخوف والرجاء

## نصّ الوصيّة

- قال الإمام أبو جعفر مُحمد بن علي الباقر عليه السلام موصياً صاحبه، وتلميذه النجيب جابر الجعفي:

«وَتَحَرَّزْ مِنْ إِبْلِيسَ بِالْخَوْفِ الصَّادِقِ، وَإِيَّاكَ وَالرَّجَاءَ الْكَاذِبَ، فَإِنَّهُ يُوقِعُكَ فِي الْخَوْفِ الصَّادِقِ»[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص164، باب وصايا الباقر عليه السلام.

## العلاقة بين الخوف والرجاء

إنّ الخـوف والرجاء حالتـان تعرضان على النفس كثيراً، ويجـب أن يكونا متلازمتين عند العبد المؤمـن السالـك مسالك المعصومين عليهم السلام، بحيـث لو حصل للإنسان خوف مـن الله تعالى بلا رجاء عبّر عنه باليأس من روح الله، أو حصل له رجاء بلا خوف عبّر عنه بالأمن من مكر الله، وقد ورد النهـي عـن كلّ حالة منفصلة عن الأخرى، «**لأنّ الخوف رقيب القلب، والرجاء شـفيع النفس، ومن كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً، وإليه راجياً**»[1].

فالمطلوب وجودهما وتساويهما بحيث لو وزنا لم يتراجحا، فاللازم على العبد إذا فكّر في قدرة الله وعظمتـه أن يخاف منـه ويخشاه، وإذا فكّر في عفوه وكرمه أن يرجـو صفحه، وينبغي أن يتّسم الأمر بالقصد والاعتدال، فلا إفراط ولا تفريط في الخوف والرجاء، لأنّ الإفراط في الخوف يؤذي النفـس ويجعلها في حالة اليأس من الرجاء والأمـل، والرجاء إذا كان مجرّداً من الخوف الصادق، فهـو باعث على الإهمال والتقصيـر والتمرّد على طاعة اللّه تعالى، قال مولانا الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**خير الأعمال اعتدال الرجاء والخوف**»[2].

وقال حفيده الإمام الصادق عليه السلام: «**ارج الله رجاء لا يُجرِّؤك على معاصـيه، وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته**»[3].

وينقـل لنا الإمـام الصادق عليه السلام أنّ لقمان الحكيم قـال وهو يوصي ابنه: «**خـف الله خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذّبك، وارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك**»[4].

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج70، ص390.

(2) الآمدي التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص 91، الحكمة 1742.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج70، ص 384.

(4) م.ن، ج70، ص 354، و ص 390.

## شيمة المتّقين

الخـوف من الله تعالى نوع من الخضـوع والخشية أمام عظمته جلّ شأنـه، والذين يحملون هذا الخـوف طوبى لهم وحسن مآب، روى مولانـا الإمام الباقر عليه السلام عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله قال:«...، طوبى لمن شغله خوف الله عن خوف الناس»[1].

وقـال الإمام الصـادق عليه السلام: إنّ مما حفظ من خطـب النبي صلى الله عليه وآله: «**ألا إن المؤمـن يعمل بين مخافتيـن: بيـن أجـلٍ قـد مضـى لا يدري ما الله صـانع فيه، وبيـن أجلٍ قد بقي لا يـدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد المؤمن من نفسـه لنفسـه ومن دنياه لآخرته، وفي الشـيبة قبل الكبر، وفي الحياة قبل الممات، فو الذي نفس مُحمّد بيده، ما بعد الدنيا من مستعتب، وما بعدها من دار إلاّ الجنّة أو النار**»[2]، والخوف من الله تعالى هو من خصائص المؤمنين وسمات المتّقين، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**الخشية من عذاب الله شيمة المتقين**»[3].

والرجـاء الصادق كذلك أيضاً فهـو شيمة المتّقين العاملين، «**لأن من رجا شـيئاً طلبه**»[4]، وقد ورد فـي الرجـاء من النصوص الشريفة المروية والوصايا، والمواعـظ والحِكم، المنقولة عن النبي الأكـرم وأهل بيته الطاهريـن، وصحابته والصالحيـن أكثر ممّا ورد في الخـوف، فسِعة رحمة الله تعالى حقّ، ولكن لا بدّ لمن يرجوها من العمل الخالص المعدّ لحصولها، وترك الوغول في المعاصى المفوّت لهذا الاستعداد، وهذا هو الرجاء الصادق الممدوح، وانظر الى سِيَر المعصومين من أنبياء ومرسلين وأوصيائهم أجمعين عليهم السلام فإنّهم مع كونهم أعلم بسعة رحمة الله تعالى إلا أنّك تجدهم قـد صرفـوا أعمارهم في طاعة الله عـزّ وجلّ لعلمهم بأنّ توقّع الأجر بـدون الطاعة محض الغرور، والقـول بأنّـا نرجو بدون العمل قول زور، وأن الذين يقولون: «**نرجـو ولا يعملون هم قوم يترجّحون فـي الأماني كذبوا ليسـوا براجيـن**»[5]، قال مولانا الإمام أميـر المؤمنين عليه السلام – فيمن يدّعي أنه راج–: «**يدّعي بزعمه أنه يرجو الله، كذب والعظيم ! ما باله لا يتبيّن رجاؤه في عمله؟! فكلّ من رجا عرف رجاؤه في عمله، وكل رجاء – إلا رجاء الله تعالى – فإنّه مدخول، وكلّ خوف محقّق – إلا خوف الله – فإنه معلول**»[6].

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج8، ص 169.

(2) م.ن، ج2، ص 70.

(3) الآمدي التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص 94، الحكمة 1783.

(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 68.

(5) م.ن.

(6) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج9، ص 226.

وكذلك الرجاء الذي يجعل العبد يحسب نفسه لائقاً بالعفو أو الإثابة، أو رؤية عمله حسناً جميلاً يستحقّ به الجزاء، فهو رجاء كاذب مذموم، وقد علّمنا إمامنا السّجاد زين العابدين عليه السلام في المناجاة أنْ نستعيذ بالله من هذا الرجاء: «**وأعوذ بك من دعاء محجوب، ورجاء مكذوب، وحياء مسلوب،..**»[1].

## الخوف جلباب العارفين

«إنّ من جملة المفاهيم التي تمّ التأكيد عليها في تعاليم الأنبياء، لا سيّما القرآن الكريم ومن بعده روايات أهل البيت عليهم السلام، وطُرحت حولها مباحث عديدة هو مفهوم «الخوف» وفي مقابله مفهوم «الرجاء». وشبيه بالبحث الذي أوردناه حول الحزن فهناك بحث حول الخوف أيضاً. فقد أسلفنا أنّ الحزن – وفقاً للثقافة العالميّة – هو أمر لا قيمة له ولا يتمتّع بأيّ مكانة بين القيم الإنسانيّة، وإنّ علماء النفس يبذلون غاية وسعهم لإبعاد الإنسان عن كلّ ما يورثه الغمّ والحزن، وهناك حول الخوف ما يشبه هذا الكلام أيضاً، فقد شاهدتُ يوماً يافطة كُتب عليها نقلاً عن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «أعظم الذنوب الخوف»! ولا أدري ما هو مصدر هذا الحديث، بيد أنّه من المعروف أنّ الخوف مذموم في علم النفس. كما أنّهم يؤكّدون في العلوم التربويّة على ضرورة تربية الطفل بحيث لا يخاف من أيّ شيء. وقد تكون لهذا الكلام صحّة في الجملة؛ لكنّه مبهم، فإنّنا نُشاهد في المقابل بأنّ الخوف والخشية وما يُعادلهما تُذكر في القرآن الكريم بعنوان كونها قيماً إيجابيّة ويتمّ التأكيد على ضرورتها أيضاً، وبغضّ النظر عن الآيات التي تأتي على ذكر الخوف بصراحة فكلّما ذُكرت كلمة التقوى ومشتقّاتها تقريباً، فإنّه يندرج فيها مفهوم الخوف أيضاً، فالوقاية تعني حفظ النفس والتقوى هي: أن يحفظ الإنسان نفسه من الخطر، فعندما يُحاول الإنسان حفظ نفسه من شيءٍ مّا، فذلك لأنّه يخشى ضرره، ومن هنا فإنّ كلمة «التقوى» تتعدّى أحياناً إلى يوم القيامة كما في قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[2]، كما قد استخدم «الخوف» في آية أخرى ليعطي نفس المعنى أيضاً؛ وهو قوله: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾[3]، وعلى أيّة حال فليس ثمّة من شكّ في أنّ للخوف والخشية، وما يُشابههما منزلة خاصّة في التعاليم الإسلاميّة.

وهنا يُطرح السؤال التّالي: هل هناك تضادّ بين مفاهيم القرآن الكريم والمفاهيم العلميّة

(1) الإمام السّجاد علي بن الحسين عليه السلام، الصحيفة السجادية، دعائه في المناجاة 199.
(2) سورة البقرة، الآية 281.
(3) سورة النور، الآية 37.

المطروحة في علم النفس؟ إذ يقول علماء النفس: يتعيّن على الإنسان أن يُحاول أن لا يخاف من أيّ شيء. لكنّه هناك - في المقابل - تأكيد مبرم في القرآن والسنّة على ضرورة الخوف من الله، ومن يوم القيامة، ومن العذاب الإلهيّ. فكيف لنا أن نجمع بين الاثنين؟»[1].

## فِعل الله لا يخلو من حكمة

«المقدّمة التي قدّمتها في المحاضرة السابقة تنفع هنا أيضاً، فقد قلنا: إنّ ما خلقه الله تعالى في وجود الإنسان ليس لغواً، فالخوف هو أيضاً حالة شعوريّة وانفعاليّة في كيان الإنسان، وليس هو من قبيل اللغو، ولا بدّ أن يُستخدم في موضع معيّن. لكنّ المهمّ هو أن نفهم أين نستخدمه وممّن، أو من أيّ شيء يجب، علينا أن نخاف؟»

## ينبغي الخوف من المعصية

**«وهنا نُضيف مقدّمة أخرى وهي أنّه ليس في الله سبحانه وتعالى - ذاتاً - ما يوجب الخوف منه. فالله يتّصف بمنتهى الرأفة والرحمة. فالخوف من الله إذن يرجع لأنّه سبحانه لا يدع أعمالنا الاختياريّة القبيحة من دون عقاب، طبعاً بشرط أن يكون الذنب كبيراً وأنّ صاحبه لم يتُب منه بل ويصرّ عليه أيضاً و...الخ. إذن فالخوف من الله عزّ وجلّ هو - في الحقيقة - خوف من عقابه وعذابه. كما أنّ العذاب الإلهيّ لا يأتي عبثاً أيضاً فهو في الحقيقة بمثابة ردّ نتيجة أعمال الشخص القبيحة له. فإنّ علّة ما يحيق بالإنسان من أشكال المصائب والمحن والحرمان والعذاب في الدنيا والآخرة هي الذنوب التي يقترفها نفس الإنسان. إذن فما ينبغي أن نخاف منه - أصالةً - هو نفس ذنوبنا وخطايانا. ومن هنا فقد جاء في الخبر: «لا يَرجوَنّ أحد منكم إلاّ ربّه ولا يخافنّ إلاّ ذنبه»**[2]. ولهذا فإنّ زمان العقاب ومكانه يكون مخيفاً أيضاً. ومن هنا فإنّنا نقول تارة: نحن نخاف الله، ونقول تارة أخرى: نحن نخاف من يوم القيامة، ونقول تارة ثالثة: نحن نخاف من جهنّم. وإنّ مآل جميع ذلك في الحقيقة إلى خوفنا من ذنوب أنفسنا».

## معنى الخوف ومراتبه

«يظنّ البعض أنّ للخوف والجُبْن نفس المعنى، في حين أنّ الجبن هو صفة أخلاقيّة في وجود الإنسان تجعله لا يجرؤ على الإقدام على مهمّات الأمور. وهي صفة قبيحة تقع في مقابل الشجاعة.

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 18 آب ، 2011 م.

(2) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج18، ص232.

أمّا الخوف فيُغطّي طيفاً واسعاً من حالات الإنسان؛ فمرتبة من مراتب الخوف تكون غير اختياريّة، وهي ما يُطلق عليها علماء النفس حالة انعكاسيّة؛ كأن ينتفض المرء عند سماعه لصوت عالٍ ومفاجئ. وهي حالة غير اختياريّة وغير مذمومة إطلاقاً ولا يتعلّق بها أمر ولا نهي. أمّا المرتبة التي تليها فإنّ لاختيار المرء وشعوره وتحليله الذهنيّ أثراً طفيفاً في ظهورها على الرغم من أنّها تحدث بسرعة فائقة، ويتعلّق بها الأمر والنهي أيضاً. يقول القرآن الكريم عندما واجه نبيّ الله موسى عليه السلام سحر السحرة: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[1]، وقد جاء في الخبر أنّ خوف موسى عليه السلام هذا كان من أن يرتعب الناس من هذا السحر فيضيع الحقّ. فإنْ كان الأمر كذلك فإنّ هذا الخوف كان قد حصل بعد تفكير وتأمّل. وقد تصل مراتب الخوف إلى درجة توشك روحُ المرء فيها على الانفصال عن جسده. وكلمة الخوف تُطلق على كلّ هذه المراتب»[2].

## هل الخوف محبَّذ أم غير محبَّذ؟

«هل الخوف هو حالة حسنة يا ترى؟ كما سبق أنْ قُلنا في المحاضرة الماضية فإنّه ليس لأيّ من الخوف أو الحزن أو السرور حُسن أو قُبح من الناحية الأخلاقيّة بذاته؛ بل إنّ الأمر يرتبط بالحال التي يظهر فيها وبالعامل المسبّب له وبكمّيته وكيفيّته. فالإنسان بشكل طبيعيّ يقلق عندما يشعر بالخطر أو يُصيبه الضرر فتنتابه حالة من الخوف. فهذه الحالة في حدّ ذاتها ليست هي فضيلة ولا رذيلة أخلاقيّة. لكنّه إذا تغلّبت هذه الحالة على المرء وأصبحت حالة ثابتة فيه وصار يخشى باستمرار من أن تُسلب منه النعمة الفلانيّة أو يفقد كرامته واحترامه عند الناس أو يُطرد من منصبه أو ما إلى ذلك فهي حالة سيّئة تُعيقه عن أداء واجباته وتجعله دائم الاضطراب. أمّا إذا كان الخوف مساعداً على تكامل الإنسان روحيّاً ومعنويّاً وتقريبه إلى الله فهو خوف حسن. وهذه هي الحكمة من وجود الخوف عند الإنسان؛ وهي أن يحفظ المرءَ من الأخطار ويحول بينه وبين الوقوع في أشراك الشياطين والأعداء. فإنّ ما يحظى بأهمّية عند المؤمن هو السعادة الأبديّة، وليس الأمور الدنيويّة. إذن فخوف المؤمن يكون من تبعات أعماله في عالم القيامة والتي تتجسّد في جهنّم؛ فهو لذلك يخاف منها»[3].

---

(1) سورة طه، الآية 67.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 18 آب ، 2011 م.

(3) م.ن.

## خوف أهل المعرفة

«لكنّ الخوف من العذاب هو أوطأ مراتب الخوف عند المؤمن. فللمؤمنين - حسب مراتب إيمانهم ومعرفتهم - أشكال أخرى من الخوف هي أعظم قيمة بكثير من هذا الخوف؛ كالخوف من السقوط من عين الله تعالى. فالذين يشكون من ضحالة في المعرفة لا يعرفون قيمة لطف الباري عزّ وجلّ، ولذا لا يحظى هذا الأمر بأهمّية عندهم. فعندما يريد القرآن الكريم أن يوضّح عاقبة أهل الشقاء فإنّه يقول: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1]، فهل فكّرنا يوماً بأنّه ما الذي سيحصل إذا لم ينظر الله إلينا يوم القيامة؟ وهل يتمتّع هذا الأمر بأهمّية عندنا أساساً، أم إنّ المهمّ عندنا هو الحصول على نعم الجنّة؟ فالأطفال الذين يتمتّعون بفطرة سليمة يُدركون هذا النمط من العذاب؛ فإنّ أقسى أنواع العذاب للطفل هو أن تستاء أمّه منه فلا تلتفت إليه، لكنّ قليلي المعرفة من الناس لا يُدركون مثل هذه العلاقة مع الله، فكيف لهم أن يعرفوا ما الذي سيحصل إذا استاء الله منهم. لكنّه في اليوم الذي يكونون فيه بحاجة لمثل هذه النظرة فسيُدركون مدى شدّة العذاب الناجم من حرمانهم منها. فبعض عباد الله يخشون استياء الله منهم وعدم تحدّثه إليهم، ولا يخافون من جهنّم. وهذا أيضاً نمط من أنماط الخوف من الله. فكلّ مَن حاز حبّ الله في قلبه كان خوفه من استياء الله أكثر، وحتّى إذا كان متنعّماً بألطاف الله تعالى فإنّه يخشى انقطاع تلك الألطاف.

فإذا أمعنّا النظر في أحوالنا وسلوكيّاتنا الاختياريّة فسنُلاحظ أنّ العامل من وراء حركاتنا ونشاطاتنا الاختياريّة هو إمّا خوف الضرر أو رجاء النفع. وإنّ اختلاف الناس في سلوكيّاتهم ناشئ عن اختلافهم في تشخيص الضرر أو النفع؛ وإلاّ فأيّ تصرّف يقوم به أيّ امرئ فإنّ الغاية منه هو دفع ضرر ما عن نفسه أو جلب نفع ما لها. فلا بدّ أن يكون أحد هذين العاملين الاختياريّين مؤثّراً في جميع أفعالنا الاختياريّة. حتّى العاشق فإنّه يشعر - بسبب سلوكه مع معشوقه - بلذّة عقلانيّة ولطيفة في روحه وهو يسعى عن غير وعي وراء هذه اللذّة. إذن فهو أيضاً يُفتّش عن لذّة نفسه من خلال عدّة وسائط.

إذن فسلوكنا الاختياريّ هو إمّا لدفع ضرر أو لكسب فائدة. فعندما نحتمل وجود الضرر تصدر منّا ردّة فعل طبيعيّة لهذا الاحتمال تُدعى «الخوف». فالخوف إذن هو حالة طبيعيّة تحصل عند احتمال الضرر، ولا نكاد نجد في عالم الطبيعة إنساناً لا يكون الضرر محتملاً بالنسبة له. أمّا بالنسبة للمؤمن فهناك أضرار أهمّ من تلك وهي الأضرار الأخرويّة. ومن هنا فإنّ من أهمّ العوامل

(1) سورة آل عمران، الآية 77.

التي تدفعنا للمضيّ في طريق الكمال هو الالتفات إلى الأضرار التي تُهدّد سعادتنا الأبديّة. فالالتفات إلى هذه الأضرار يوجب الخوف؛ وهو حالة الانفعال التي تحصل للإنسان في مقابل احتمال الضرر. وإنّ تأكيد القرآن الكريم على مفاهيم من قبيل الخوف، والخشية، والتقوى، والوجل، والرهبة، وأمثالها ثمّ الإطراء عليها بأشكال شتّى يأتي من باب أنّ هذه الحالات هي أهمّ العوامل لحركة الإنسان التكامليّة. وبالطبع فإنّ هذه الحالات تقترن برجاء النفع أيضاً، وإنّ كلا العاملين مهمّ؛ غير أنّ تأثير الخوف يفوق تأثير الرجاء. نفهم من ذلك أنّ الخوف يُعدّ عاملاً مهمّاً من عوامل السعادة؛ هذا - بالطبع - إذا كان الخوف من الأخطار المعتنى بها، وليس ثمّة من ضرر يُمكن أن يُعتنى به بالنسبة للمؤمن أشدّ من الأخطار الأخرويّة؛ وهي الأخطار المتعلّقة بالساحة الإلهيّة المقدّسة. ومن هنا فلا بدّ من تقوية هذا الخوف»[1].

## كيف يبعد الخوفُ الصادق الشيطانَ

«إنّ أفضل آثار الخوف من الأضرار الأخرويّة هو حفظ المرء في مقابل الشيطان. فعندما يريد الشيطان أن يوسوس للإنسان ويدفعه إلى اقتراف المعصية فإنّه يُزيّنها في نظره بحيث يظنّ الإنسان أنّ فيها ألفَ درجة من اللذّة. وإنّ العامل الوحيد الذي يُمكنه جعل المرء يصمد في وجه تزيينات الشيطان ويجعلها غير ذات أثر عليه هو حالة الخوف من التبعات السيّئة للذنب التي تتمثّل، بالدرجة الأولى، في العذاب الأخرويّ والحرمان من رضوان الباري عزّ وجلّ والسقوط من عين الله. فإنْ أردنا أن لا نقع في أشراك الشيطان إلاّ قليلاً، أو أن لا نقع على الإطلاق إن شاء الله، فإنّه يتعيّن علينا السعي وراء حالة الخوف الحقيقيّ. فإنّنا نتظاهر بالقول: إنّنا نخاف الله، لكنّنا عندما نتأمّل في الموضوع جيّداً نُلاحظ أنّ خوفنا من الله ليس جدّياً. ومن ناحية أخرى فنحن ندّعي رجاء رحمة الله تعالى. فبعض المذنبين يقولون تبريراً لأعمالهم القبيحة: «إنّ رحمة الله واسعة وسيغفر لنا. نحن نرجو رحمة الله»! ونفس هذه التبريرات هي من تسويلات الشيطان أيضاً. فطالما أكّد النبيّ الأعظم وأئمّة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام على أنّ العديد من أشكال الخوف التي تدّعونها ليست هي من نوع الخوف الصادق، كما أنّ العديد من ألوان رجائكم ليست من صنف الرجاء الحقيقيّ، ولا بدّ أن تجتهدوا ليكون خوفكم ورجاؤكم صادقين. فإذا كان المرء يخشى شيئاً فسيُحاول الابتعاد عنه. فنحن نقول: إنّنا نخشى عذاب الله، لكنّنا نسعى لاقتراف الخطيئة. فأيّ

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 18 آب ، 2011 م.

خوف هذا؟! إنّه خوف كاذب. ومن جانب آخر فإنّنا ندّعي رجاء رحمة الله سبحانه. لكنّ الذي يرجو شيئـاً فإنّـه يحاول أن يبلغه بسرعة. وكلّمـا زاد رجاء المرء بشيءٍ مّا فسيـزداد سعيه للوصول إليه. لكنّنا إذا لم نسع وراء أمر ما فذلك بسبب استبعادنا لحصول النتيجة منه. فلو كنّا نأمل حقيقةً أنّه سيُعطـي النتيجة المرجوّة فسنبذل جهدنا للوصـول إليه بسرعة. فالذي يدّعي الرجاء ثمّ لا يُمارس العبـادة فهـو يكذب؛ فكيف يبذل غاية المجهود لبلوغ الأمور الأخـرى التي يُرجى نيلها في الدنيا في حيـن أنّـه لا يبذل أدنى جهد للظفر برحمة الله تعالى على الرغـم من قوله: إنّني أرجو رحمة ربّي؟! إذن فادّعاؤه هذا لا يعدو كونه كذباً».

يقول الإمام الباقر عليه السلام لجابر: «**وتحرّز من إبليس بالخوف الصادق وإيّاك والرجاء الكاذب فإنّـه يوقعك في الخوف الصـادق**»؛ فإن رُمـتَ أن تُصان من شرّ الشيطان فعليك بالخوف الصادق وتجنّـب الرجـاء الكاذب! لأنّـه يوقعك في موقف يستدعـي منك الخوف الصادق. فـإذا كان للمرء رجـاء كاذب في شيء؛ كأن يقـول: إنّني أرجو رحمة الله، ثمّ لا يسعى لكسبها، فسيوقعه هذا الرجاء الكاذب في فخّ المعصية التي ستجعله في موقف يستلزم منه خوفاً صادقاً، أي العذاب، وقد تكرّرت عبارة: «**الخوف الصادق**» في هذا المقطع مرّتين مع فارق بسيط بين الاثنين، فعندما يقول عليه السلام: «**وتحـرّز مـن إبليس بالخوف الصـادق**» فهـو يقصد: حاول أن تستشعر خوفـاً جدّياً، وعندما يقول: «**وإيّاك والرجاء الكاذب فإنّه يوقعك في الخوف الصـادق**» فهو يريد: أنّ رجاءك الكاذب سيوقعك في فخّ الخطيئة التي ستجعلك في موقف يتطلّب منك خوفاً صادقاً. وكأنّ كلمة: «موقف» هي مقدّرة قبل عبارة: «**الخوف الصادق**» وقد حُذفت»[1].

نفعنا الله وإياكم، وصلى الله على الحبيب المصطفى مُحمد وآله الطيّبين الطاهرين.

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 18آب، 2011 م.

# الحبّ الإلهي والصدق

## نـــصّ الـــوصـــيّـــة

- قال الإمام أبو جعفر مُحمد بن علي الباقر عليه السلام موصياً صاحبه، وتلميذه النجيب جابر الجعفي:

«وَتَزَيَّنْ لله عَزَّ وَجَلَّ بِالصِّدْقِ فِي الأَعْمَالِ، وَتَحَبَّبْ إِلَيْهِ بِتَعْجِيلِ الانْتِقَالِ»[1].

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص164، باب وصايا الباقر عليه السلام.

## الأخلاق ورقيّ الأمم

إنّ رقـي الأمـم إنّما هو بمقدار مـا تمتلكه من قيـم أخلاقية تتفاضل من خلالهـا، وتتنافس مع غيرهـا من أجـل الحفاظ عليها وديمومتها منهجاً للأجيال، والأهم من امتلاك القيم الأخلاقية هو أن نُزيّـن تلـك القيم بالصدق عندما نعمل بها، وإذا لم نُزيّـن أعمالنا بالصدق، فلن نستطيع دعوة ألصـق الناس بنا إلى مناهـج الإسلام الأصيـل لينهلوا من آدابه، ويتخلّقوا بمكارم أخلاقه – فضلاً عـن البعداء– فعلى سبيل المثال: من أراد الإيمـان، فعليه بالصدق في طلب العلم، ومن أراد العلم الـذي يُفضـي إلى الإيمان، فعليه أن يتزيّن بالحلم الذي يجعل مـن العلم علماً هادفاً لا علماً يُرافقه الغـرور والتكبّر، ومـن أراد إيماناً يستنـد إلى العلم النافـع والمستوزر بالحلم، فمـا عليه إلاّ صدق التخلّق بالرفق الذي يكشف عن زينة الحلم وحقيقته.

قال مولانا رسول الله ﷺ: «**الرفق كَرمٌ، والحلم زَينٌ، والصبر خيرُ مَركب**»[1].

وقـال أميـر المؤمنين عليه السلام: «**ثلاث هـنّ زين المؤمـن: تقوى الله، وصـدق الحديـث، وأداء الأمانة**»[2]، وقال عليه السلام: «**الصدق رأس الإيمان، وزين الإنسان**»[3]، وما تقدّم هو مقدّمة مختصرة ومدخـل لموضوع وصيّة مولانا الإمام الباقر عليه السلام التي يوصي بها صاحبه وتلميذه جابر الجعفيّ، فيقول: «**وَتَزَيَّنْ للهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالصِّدْقِ فِي الأَعْمَالِ، وَتَحَبَّبْ إِلَيْهِ بِتَعْجِيلِ الانْتِقَالِ**».

## فطرة السعي وراء المحبوبيّة

«إنّ مـن جملـة حاجات الإنسـان الفطريّة والتي تظهر فـي فترة الطفولة هي حاجتـه إلى محبّة الآخريـن. فالإنسـان يُحبّ أن يودّه الآخرون ويُبدوا اهتماماً به، فـأوّل من يتعرّف عليه الطفل ضمن محيـط الأسرة هما أبـواه ولذا فهو يحاول أن يفعل ما يجلب انتباههما نحـوه ليفوز أكثر بمحبّتهما. ثـمّ يسعى في المراحـل التالية من عمره أن يكون محبوباً بين أترابه فـي محيط اللعب ولدى معلّمه فـي المدرسة. وعندما يدخل إلـى المجتمع فمضافاً إلى رغبته في أن يُحبّه الجميع فهو يحاول جلب اهتمام أصحاب المناصب الأعلى به، وهذه حاجة فطريّة لدى الإنسان.

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج69، ص 414.

(2) الآمدي التميمي، غرر الحِكم ودرر الكلم، الفصل السابع في المؤمن صفاته وعلائمه، الحكمة 1558.

(3) المصدر نفسه، الفصل الثالث، الحكمة 4312.

أمّا الحكمة من هذه الرغبات الفطريّة - بالالتفات إلى ما بيّناه آنفاً من مراحل - فهي جلب انتباه الإنسان في نهاية المطاف إلى الله عزّ وجلّ وإثارة رغبته في أن يكون محبوباً عنده تعالى. لأنّه كلّما تعرّف المرء على أصحاب مناصب ومقامات أعلى أحبّ أن يكون محبوباً لديهم، وهذا يستلزم أن تتولّد لديه الرغبة في أن يكون محبوباً عند الله إذا عرفه.

وهو تدبير أودعه الله جلّ وعلا في خِلقة الإنسان، فعندما يُدرك المرء عظمة الله ويفهم مدى قيمة أن يكون محبوباً عنده، فسيسقط الآخرون من عينه ولا يبقى في مقابل العظمة الإلهيّة غير المحدودة ما يستحقّ العرض إلاّ إذا كان ضمن شعاع الله عزّ وجلّ. وهذا يُذكّرنا بقصّة غلام دون البلوغ عندما سأله رسول الله ﷺ عمّا إذا كان يُحبّه هو (النبيّ) أكثر أم الله؟ فأجاب: «الله الله الله يا رسول الله ليس هذا لك ولا لأحد، فإنّما أحببتُكَ لحبّ الله»[1].

فإذا عرف المرءُ حقيقةَ عظمة الباري عزّ وجلّ، فإنّ كلّ شيء سيفقد بريقه في مقابلها ولن يكون لأيّ شيء قيمة إلاّ في شعاع لطفه وعناياته جلّ وعلا، ونحن أيضاً علينا أن نُحبّ الله أكثر من أيّ شيء ومن أيّ أحد آخر، وأن نبذل ما بوسعنا كي يُحبّنا أكثر من أيّ شخص آخر، فإن لم يُحبّنا الله فما جدوى محبّة الآخرين لنا يا ترى؟! فحبّ الآخرين لنا إمّا أن يكون في حدود التسلية أو يُشكّل آفة ستتبعها عواقب غير محبّذة. وعلى أيّة حال فإنّ اتّجاه هذه المحبّة الفطريّة يكون نحو الله تعالى»[2].

وقال مولانا رسول الله ﷺ: «**أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبّوني لحبّ الله، وأحبّوا أهل بيتي لحبّي**»[3].

ولا تكترث بالمبطلين جهالةً
علامة حُبّ المصطفى حبّ آلهِ

## سُبل كسب المحبوبيّة

«المقدّمة الأخرى هي: قد يسعنا الادّعاء بأنّ جميع المساعي التي يبذلها الإنسان ليكون محبوباً عند الآخرين إنّما تتلخّص في قسمين: الأوّل التزيّن في المظهر بحيث إذا رآه الطرف المقابل أحبّه ولم يشمئزّ منه. فلو ظهر المرء بمظهر فوضويّ وبدن أو لباس متّسخ وفاحت منه رائحة نتنة فلن يرغب أحد في النظر إليه فضلاً عن أن يُحبّه. ولعلّ من جملة أسرار الآداب التي يذكرها الشرع عند

(1) حسن بن محمد الديلمي، إرشاد القلوب، ج1، ص161، الطبعة 1: الشريف الرضي، قم.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 19 آب، 2011 م.

(3) محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج3، ص163، الحديث رقم 4616، الطبعة 1: دار الكتب العلمية، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي في التلخيص قائلاً: صحيح.

الحضور في بيئة اجتماعيّة هي عدم نفور الآخرين عند رؤيتهم للإنسان المؤمن.

لكنّ المظهر المزيّن والمرتّب لا يكفي لوحده لجلب محبوبيّة الآخرين، فمن أجل أن يُصبح المرء محبوباً عند أحدٍ مّا فإنّه يُحاول - مضافاً إلى اعتنائه بمظهره أن يُنظّم سلوكه وتصرّفاته بشكل يجلب اهتمام الطرف المقابل نحوه كي لا يظنّ أنّه إنسان كسول متطفّل وليس في نيّته إلاّ استغلاله؛ بل إنّه يُحاول أن يولّد في نفسه انطباعاً بأنّه شخص ذو قيمة. وهذان الأمران يعملان بشكل طبيعيّ على جلب محبّة الآخرين»[1].

## كيف نكون محبوبين عند الله

«**فإذا أحببنا أن نكون أعزّاء عند الله تعالى فهل يتعيّن علينا أن نُصفّف شعرنا ونشذّب لحيتنا مثلاً؟! كلاّ، فمن أجل أن نُصبح محبوبين عند الله علينا أن نعثر على ما يُناسبه جلّ وعلا من زينة؛ زينة يُحبّها الله إذا نظر إليها وتكون متماشية مع ذوقه. يقول رسول الله ﷺ في حديث شريف: «إنّ الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم»**[2]؛ فهو لا ينظر إلى نظافة وأناقة هندامكم بل إلى قلوبكم ليرى ما إذا كانت طاهرة ونورانيّة أم مدنّسة ومتعفّنة.

يقول الإمام الباقر لجابر: «**تزيّن لله عزّ وجلّ بالصدق في الأعمال**»؛ فإنْ أحببت أنْ تتزيّن أمام الله سبحانه وأن تفعل ما يُرغّبه في النظر إليك فعليك أن تكون صادقاً في أعمالك وأن تضع المكر والخديعة مع الله جانباً. فمن المسلّم أنّ الناس يُخدعون بصور شتّى منها التملّق، والكذب، والوعد، والوعيد، وما إلى ذلك. فالمخادعون يستخدمون كلّ ما هو قيّم في المجتمع من أجل خداع الآخرين. بيد أنّه من غير الممكن من خلال هذه الأعمال النفوذ إلى حضرة الباري عزّ وجلّ؛ والسبب هو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[3]؛ فالله يعلم بما يختلج في أعماق القلوب. فبمجرّد أن تخطر في أذهاننا فكرة فإنّه عزّ وجلّ يكون حاضراً هناك ومطّلعاً على ما خطر فيها؛ ولهذا فمن المستحيل أن نخدعه. لكن ثمّة بعض الناس من يُحاول خداع الله سبحانه؛ كما في قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾[4]، ويتصرّف بصورة توحي كأنّ الله لا بدّ أن يُصدّق كلامه ويقبله بكلّ بساطة في حين أنّه محشوّ بالأكاذيب. إذن فإنّ الزينة التي يُحبّ الله جلّ شأنه أن يراها في سلوكيّاتنا هي الصدق»[5].

---

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 19 آب، 2011 م.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج74، ص90.

(3) سورة آل عمران، الآية 119.

(4) سورة البقرة، الآية 9.

(5) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 19 آب، 2011 م.

## المراد من الصدق

«كلمة: (الصدق) في العربيّة، ولا سيّما في القرآن، لا تُستخدم لقول الصدق فحسب، بل تُستعمل للإنشاء، والوعد: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1]، وغيرهما.

فإنّ لأعمالنا لساناً أيضاً وهي تتكلّم وتُظهر ما يجري في خلدنا، فقد لا يرغب الشخص نفسه في أن يُعلن هذا الكلام لكنّ تصرّفاته تُفصح للآخرين عن المراد منها وما تعني، ويُقال في مثل هذه الحالات: «**لم يصدّق عملُه قولَه**»؛ بمعنى أنّ هناك تناقضاً بين لسان العمل ولسان القول. إذن كلمة: «الصدق» تستعمل في جميع هذه الموارد، ومن هذا المنطلق يقول الإمام عليه السلام: «**تزيّن لله عزّ وجلّ بالصدق في الأعمال**»؛ أي كنْ صادقاً في سلوكك وتزيّن لله بهذا العمل. وبالطبع فإنّ السلوك – بمعنى من المعاني – يشمل القول أيضاً؛ لأنّ القول هو الآخر عمل يصدر من الإنسان»[2].

## الطاعة والحبّ الإلهي

إذا أراد العبد أن يبتغي الزلفى لدى الله عزّ وجلّ، فعليه أن يتزيّن بالصالحات من الأعمال ويتقرّب بها إلى الله سبحانه، وهذا ممّا ينقله إلى مرتبة رفيعة ؛ هي مرتبة المحبوبيّة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3]. فاتّباع رسول الله صلى الله عليه وآله هو مصداق محبّة ربّ العالمين، فمن لم يكن للمصطفى متّبعاً لم يكن لله تعالى محبًّا، فالحبّ وإن لم يتّفق العلماء على معنى واحد له إلا أنّ أنجع الأقوال في شأنه هو أنّ أصله اللزوم والثبات: «فالحاء والباء أصول ثلاثة، أحدها اللزوم والثَّبات، والآخر الحَبّة من الشيء ذي الحَبّ، ومن هذا الباب حَبَّة القلب: سُوَيداؤه، ويُقال ثمرته، والثالث وصف القِصَر...إلى أن يقول: (وهو موضع الشاهد): أمّا اللزوم فالحُبّ والمَحبّة، اشتقاقه من أحَبَّه إذا لزمه. والمُحِبّ: البعير الذي يَحْسِر، فيلزمُ مكانَه»[4].

في الحديث القدسي المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**يقول تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب، وما تقرّب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي**

---

(1) سورة الأحزاب، الآية 23.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 19 آب، 2011 م.

(3) سورة آل عمران،الآية 31.

(4) نص على ذلك أبو الحُسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج 2، ص 26.

**يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبّه»**[1]. وحُبُّ اللّه لعبدٍ من عبيده أمرٌ لا يقدر إدراكَ قيمته إلاَّ مَن يعرف اللّه تعالى. أجل لا يُقدّر حقيقةَ هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقةَ المُعطي، وحُبُّ العبدِ لربّه نعمةٌ لهذا العبد لا يُدركها كذلك إلا مَن ذاقها. وإذا كان حُبُّ اللّه لعبدٍ من عبيده هو أمرٌ جدُّ عظيم، وفضلٌ غامرٌ جسيم، فماذا نستطيع أن نقول في إنعام اللّه على العبد بهدايته لحُبّه وتعريفه هذا النوع من الحبّ الذي لا نظير له ولا شبيه: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾[2].

## أحبّاء اللّه

عندما أراد اللّه تعالى عبداً يتزيّن له جلّ شأنه بالصدق في الأقوال والأعمال ليفتح حصون اليهود في خيبر. قال المصطفى الأكرم ﷺ «**لأعطينّ الرايةَ رجلاً يُحبُّ اللّه ورسولهَ، ويُحبُّه اللّه ورسولُه يفتحُ اللّه على يديه ليس بفرّار**»، فتطاول لها الأصحاب، فقال النبي ﷺ: «**ادعوا لي عليّاً**»[3].

فالمحبَّةُ المتبادلة هي الصِّلةُ بين الكرّار والمختار والجبّار، وهي المنزلةُ التي فيها يتنافسُ المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى عَلَمها شمَّر السابقون، وعليها تفانى المحبُّون، وبروح نسيمها تروَّح العابدون، فلا يكفي أيُّها المؤمن أن تكون مُحبّاً، فالأهمّ والأرقى أن تكون محبوباً سائراً على خطى إمامك عليه السلام، تتزيّن للّه عزّ وجلّ بالصدق في الأعمال، وتتحبّب إليه بتعجيل الانتقال، وهكذا كان حال الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه، أوّلهم وزير مُحمد ومن هو منه بمنزلة هارون من موسى، وثانيهم لقمان هذه الأمّة قولاً وعملاً، وثالثهم شبيه عيسى بن مريم في هذه الأمّة، ورابعهم أول من خطّت به فرسه في سبيل اللّه يوم بدر. أحبّهم اللّه تعالى، وأمر حبيبه الأعظم أن يُحبّهم، فقال ﷺ: «**إنّ اللّه أمرني بحبِّ أربعة من أصحابي، وأخبرني أنّه يُحبّهم، فقُلنا يا رسول اللّه من هم، فكلّنا نُحبّ أن نكون منهم، فقال: إنّ عليّاً منهم ثم سكت ساعة، ثم قال: إنّ عليّاً منهم، وسلمان الفارسي، وأبا ذر، والمقداد بن الأسود الكندي**»[4].

## المنافقون في الدرك الأسفل

«وبطبيعة الحال فكما ينبغي أن نكون صادقين مع اللّه، فلا بدّ أن نكون صادقين مع الناس أيضاً،

---

(1) الشيخ المحدث محمد بن الحسن الحُر العاملي، الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، ص244، الباب 11: فيما ورد بشأن سيدنا ونبينا محمد بن عبد اللّه ﷺ، طبعة 3: منشورات دهقان، طهران.

(2) سورة المائدة، الآية 54.

(3) أحمد بن شعيب النسائي، السنن الكبرى، ج5، ص144، حديث رقم 8511، الطبعة 1: دار الكتب العلمية.

(4) محمد بن اسماعيل البخاري، التاريخ الكبير، ج9، ص 31، الحديث رقم 271، طبعة الجمعية العلمية الشهيرة بدائرة المعارف العثمانية بعاصمة الدولة الآصفية حيدر آباد الدكن، ورواه في الكنى، ورواه الترمذي، وأحمد في الفضائل وغيرهم.

ولا سيّما مع المؤمنين، ولا ننتهج معهم أسلوب الخداع والحيلة والنفاق. فالنفاق قد يصل أحياناً إلى حدّ المعصية، لكنّه يصل أحياناً أخرى إلى حدّ الكفر أيضاً؛ فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

فحال المنافق عند الله تعالى هو أسوأ من حال الكافر؛ لأنّ المنافق، علاوة على الكفر، يلجأ إلى الخداع والحيلة وما يُشابههما، فمن أجل أن لا يسقط الإنسان في هذه المرتبة من النفاق فعليه أن يحذر من الابتلاء بدرجاته الأضعف أيضاً. فإذا أراد الإنسان أن لا تزلّ قدمه فلا ينبغي أن يقترب من حافّة الوادي. وإنّ اجتناب المرتبة الأولى من النفاق هي أن يحاول الإنسان أن يحمل أيّ عهد قطعه مع الله تعالى على محمل الجدّ حتّى وإن لم ينطق به بلسانه؛ فلا ينبغي أن ننسى ما قطعنا على أنفسنا مع الله من وعود، فهو عمل غاية في القبح، وفي المرتبة التّالية فإنّه يتعيّن عليه الوفاء بالعهود التي يُعدّ الوفاء بها واجباً، وهو عندما ينطق بهذا العهد بلسانه كأن يعقد نذراً بقوله: «لله عليّ نذر أن أفعل كذا وكذا». فإنّ قبح مخالفة العهد في مثل هذه الموارد أشدّ.

أمّا المراتب الأعلى من ذلك فهي عندما يُعطي الإنسان لله ولرسوله عهداً بأن يفدي نفسه وماله في سبيل الله لكنّه ينكث عهده ويتراجع عن بيعته فيما بعد. فأيّ عمل هو أقبح من ذلك؟»[2].

## عقوبة نكث العهد مع الله

«يستخدم الله تعالى بخصوص مَن عاهد الله ثمّ نكث عهده معه مصطلح «الكذب» فيقول: إنّ بعض ضعيفي الإيمان من الناس قد قطعوا عهداً مع الله بأنّه إذا أعطاهم ثروة فإنّهم سيتصدّقون بنسبة كبيرة منها إلى الفقراء ويبذلونها في أعمال الخير. فأعطاهم الله الثروة لكنّهم لم يفوا بعهدهم: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾[3]، وعندها قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[4]، فنتيجة خُلفهم للوعد مع الله تعالى وكذبهم فيما عاهدوا به فإنّهم قد ابتُلوا بالنفاق. فإذا عاهدتَّ الله على أمر فكن ثابتاً في عهدك وإلاّ فستلقى عاقبة ذلك حتماً.

فعندما يُخلف المرء عهده مع الله تعالى؛ كأن يقول بلسانه: أنا أُؤمن بالله، لكنّ عمله يُكذّب قولَه، فسيُصبح وجهه قبيحاً عند الله تعالى. وكلّما أخلف المزيد من الوعود اشتدّ قبح وجهه حتّى

(1) سورة النساء، الآية 145.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 19 آب، 2011 م.

(3) سورة التوبة، الآيتان 75 و 76.

(4) سورة التوبة، الآية 77.

ينفـر الله من النظـر إليه. فما من أحد يُحبّ رؤية الوجه القبيح، فمـا بالك بالقبائح التي تكون من العمق بحيث يبقى أثرها إلى يوم القيامة ولا تكون قابلة للعلاج.

إذن فلنحاول - إذا أخطأنا وبادرنا إلى خداع الله تعالى - أن نُسارع إلى التوبة ولا ندع أثر هذه الأعمال يبقى أو تتراكم فوقها ذنوب أخرى حتّى تتحوّل - شيئاً فشيئاً - إلى مَلَكة فيُصبح علاجها أقرب إلى المحال. بالطبع لا ينبغي اليأس من رحمة الله في أيّ حال، لكنّ علاج أثر المعصية يكون أحياناً بالغ الصعوبة»[1].

## المسارعة في خدمة المولى

«وكمـا قُلنا فإنّ الزينة لوحدها لا تكفي لنيـل المحبوبيّة. فإنّ أحبَّ المرء أن يحظى بمحبّة ثابتة عنـد الناس فعليـه أن يُبدي تصرّفاً خاصّاً جدّاً تجاههم. فالتلميذ الـذي يفوز بحبّ معلّمه هو ذلك الـذي ينجـز واجبه المدرسيّ الـذي يحتاج ساعة مـن الزمن في نصـف ساعة. أمّا ذلـك التلميذ المتقاعس الذي يؤخّر إنجاز واجبه لعدّة أيّام فإنّه يسقط من عين معلّمه.

يقـول الإمـام الباقـر عليه السلام في هذا الصدد: بغيـة كسب حبّ الله عزّ وجلّ فعـلاوة على تزيين أعمالـك بالصدق «**تحبّـب إليه بتعجيل الانتقـال**». ولأُوَضّح هذا المقطع بآيـة من الذكر الحكيم: فعندمـا انطلـق موسى عليه السلام مع بني إسرائيـل إلى صحراء سيناء فقد وصـل عليه السلام إلى الميعاد قبلهـم. عنـد ذاك بادره الله عزّ وجـلّ بالقـول: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[2]؛ لماذا سبقتَ قومك بالوصول إلى هنا؟ قال: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾[3]؛ أي إنّني بكّرت في الوصول لتُسَرّ منّي. أو بتعبير آخر: أحببت أن أسارع في خدمة مولاي. فالإسراع في خدمة المولى وإنجاز الواجب بسرعة مـن شأنهما أن يزيدا من محبوبيّة العبد عند مـولاه. إذن فالإمام الباقر عليه السلام كأنه يريد أن يقول لجابر: إذا أحببت أن تكون محبوباً عند الله فعليك أن تعجّل في التحرّك! وقد يكون التحرّك بمعنى القيـام بعمل معيّن، كما أنّه قد يعني أيضاً حركـة الإنسان من درجاته الوضيعة للوصول إلى مرحلة الكمـال أو عمليّة السير إلى الله تعالى. فيكون المعنى: إذا رغبت أن يُحبّك الله فعجّل بالحركة التي تنتهي إلى الله وتكون لأجله وفي مرضاته! ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[4]»[5].

نفعنا الله تعالى وإيّاكم، وصلى الله على الحبيب المصطفى مُحمد وآله الطيّبين الطاهرين.

---

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 19 آب، 2011 م.

(2) سورة طه، الآية 83.

(3) سورة طه، الآية 84.

(4) سورة آل عمران، الآية 133.

(5) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 19آب، 2011 م.

# التسويف

## نـــصّ الــوصــيّـــة

- قال الإمام أبو جعفر مُحمد بن علي الباقر عليه السلام موصياً صاحبه، وتلميذه النجيب جابر الجعفي:

«وَإِيَّـاكَ وَالتَّسْـوِيفَ فَإِنَّـهُ بَحْـرٌ يَغْرَقُ فِيهِ الْهَلْكَى»[1].

---

(1) العلامـة المجْلسـي، بحار الأنـوار، ج75، ص164، باب وصايا الباقر عليه السلام.

## مصيدة الشيطان

إنّ التسويف يُعدّ بحقّ من الأسلحة الفتّاكة التي يستعملها إبليس لإغواء النفس البشرية؛ وهو مصيدة الشيطان التي يصطاد بها الغافلين، وضعاف الإيمان، فكثيراً من الناس لم يستجيبوا لله ولرسوله بسبب التسويف، ولذلك لامهم الله تَعَالَى، فقال: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

قال بعض المفسّرين: استخدم الله تعالى في هذه الآية المباركة كلمة (سوف) بالعتاب واللوم عليهم؛ لأنّهم كانوا يعتذرون بسوف كلّ يوم، وكثير من الناس المعرضين كلّما خاطبته بالتوبة وبالصلاة وبالعودة إلى الله قال: سوف أتوب، وهذه هي من علامات الحرمان، ومن بذر بذرة (سوف) أخرجت له شجرة (لعل)، وأثمرت له ثمراً يُسمّى (يا ليت) طعمه الحسرة والندامة.

في وصايا النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله لأبي ذرّ الغفاري رضي الله عنه: «**يا أبا ذرّ اغتنم خمس قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك، يا أبا ذرّ، إيّاك والتسويف بأملك، فإنّك بيومك ولست بما بعده، فإن يكن غد لك تكن في الغد كما كُنتَ في اليوم، وإن لم يكن غد لك لم تندم على ما فرّطت في اليوم، يا أبا ذرّ، كم من مستقبل يوماً لا يستكمله، ومنتظر غداً لا يبلغه**»[2].

قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض أصحابه يعظه:«**... فارفض الدنيا، فإنّ حبّ الدنيا يُعمي ويُصمّ، ويُبكم ويذلّ الرقاب، فتدارك ما بقي من عمرك، ولا تقل غداً وبعد غد، فإنّما هلك من كان قبلك بإقامتهم على الأماني والتسويف حتى أتاهم أمر الله بغتة وهم غافلون...**»[3].

---

(1) سورة الحجر، الآية 3.

(2) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص 526، المجلس (19) يوم الجمعة الرابع من المحرم سنة 457 هـ.

(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص136، باب ذم الدنيا والزهد فيها، الحديث 23.

## ثلاث صور لإنجاز العمل

«وصلنا في الدرس السابق إلى حيث قال الإمام الباقر عليه السلام لجابر بن يزيد الجعفيّ: «**وَتَزَيَّنْ لله عَزَّ وَجَلَّ بِالصِّدْقِ فِي الأَعْمَالِ وَتَحَبَّبْ إِلَيْه بِتَعْجِيلِ الانْتِقَالِ**»!

ويمكن تصوّر ثلاثة فروض في مقابل السرعة في إنجاز العمل: أوّلها تأخير فعل الخير وتأجيله إلى يوم غد أو بعد غد. وهو ما يُذكّرنا بأولئك الذين كلّما جرى الكلام عن التوبة قالوا في أنفسهم: لم يحن أوان ذلك بعد. فلنقم بهذا العمل أوّلاً ثمّ نتوب بعد ذلك! والنتيجة من هذا التأجيل ستكون إمّا حصول مانع من إنجاز العمل أو حلول الأجل وعدم إنجازه أساساً.

وحالة الاستمرار في تأجيل العمل هذه تُسمّى «التسويف»، والظاهر أنّها مأخوذة من «سوف» التي تدلّ على المستقبل القريب، فالتسويف هو من حبائل الشيطان الخطرة التي إذا سقط فيها أحد فإنّه لا يخرج منها ولا يبلغ هدفه.

الحالة الثانية هي الغفلة؛ بمعنى أنّ أمور الدنيا تجعل الإنسان في غفلة تامّة عن فعل الخير. ففي حالة التسويف يكون الإنسان متنبّهاً إلى ضرورة إنجاز العمل، لكنّه يؤجّله باستمرار. أمّا في الحالة الثانية فالمرء يغفل تماماً عن أنّ هناك تكليفاً يتحتّم عليه القيام به.

## بحر يغرق فيه الهلكى

«يقول الإمام الباقر عليه السلام: «وإيّاك والتسويف[1]، فإنّه بحر يغرق فيه الهلكى»؛ حذار من أن يخدعك الشيطان وإيّاك والتسويف في فعل الخير، فالتسويف بحر يُغرق ويُهلك كلّ من يسقط فيه، وعلى الرغم من أنّ نصّ عبارة: «بحر يغرق فيه الهلكى» يختلف عمّا بيّناه، غير أنّ هذا النوع من التعابير ينطوي على عناية أدبيّة؛ فالمعنى: إنّ مَن يسقط في هذا البحر يغرق إلى حدّ الهلاك.

فالقرآن الكريم يقول: ﴿**وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ**﴾[2]؛ وهذا الأمر بالمسارعة والعجلة هو مصداق للجملة السابقة من الرواية وهو قوله عليه السلام: «وتحبّب إليه بتعجيل الانتقال». فمن الجائز - على سبيل المثال - الإتيان بصلاة الظهر منذ وقت الزوال وحتّى قبيل الغروب. وإنّ مَن لم يُصلّها في أوّل وقتها لم يعصِ ربّه، لكنّ الصلاة في أوّل الوقت فيها «رضوان الله». فإنْ عجّلنا وصلّيناها في أوّل وقتها فسنحصل، مضافاً إلى المغفرة والتوبة، على رضا الله عزّ وجلّ؛ ذلك

(1) التَّسْويف: المَطْلُ (المماطلة) والتأخير، وسَوَّفْت به؛ إذا قُلتَ له مرّة بعد مرّة: سَوفَ أفعل.

(2) سورة آل عمران، الآية 133.

الرضا الذي كان يُفتّش عنه موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[1].

فالتسويف في مقابل هذه العجلة أو تقديم الخدمة هو بحر لجّيّ متلاطم وإنّ المرء لينخدع ويظنّ أنّه قادر على خوض غماره والسباحة فيه، لكنّه ما إنْ يدخله حتّى يهلك»[2].

## الفرق بين التسويف والتريّث

التسويف؛ أن تدفع الأمر مع استطاعتك أن تعمله الآن، والحاجة إليه قد قامت، ووقته قد حان، ولكنّك تتعذّر بأعذار واهية، تقول: ليس عندي وقت ولا أستطيع أن أفعله لوحدي، سوف أنتظر غيري ليُساعدني، سأحاول سأحاول، وهكذا، يؤجّل الناس المهمّات التي ينبغي أن يقوموا بها، ومعظم الأزمات تحدث عندما تؤجَّل الأشياء المهمّة إلى آخر لحظة. قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**العلم مقرون بالعمل، فمن علِم عمل، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه، وإلا ارتح**»[3].

والتريّث: تتمهّل أن تنتظر الفرصة المناسبة، فقد تكون الإمكانات والأدوات غير متوفّرة، ولم يحن الوقت المناسب بعد.

## مَهلَكة التسويف

قد أثبتت التجارب أنَّ شجرة المعاصي كُلَّما تجذَّرت في النَّفس صعُب اقتلاعها، لذا وجب قلعُ المعصية فوراً وليس الانتظار إلى سنِّ الشيخوخة حيث يشتدّ الحرص على المال وطول الأمل والتعلُّق بحطام الدُّنيا. مَنْ قال إنَّك ستُمْهَل لتصل إلى سنِّ الشيخوخة؟! ألا ترى أنَّ قلّة عدد المسنِّين دليلٌ على موت الأكثر في سنِّ الشباب، فلا يبقى منهم إلاَّ القليل؟.

وما يُدريك أنّه إذا امتدّ أجلك سيكون في قلبك إخبات وخضوع وخشوع لله فتتوب وتستغفر؟ ألم تسمع قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[4]؛ قال مولانا الإمام الباقر عليه السلام: «**ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى**

(1) سورة طه، الآية 84.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 20 آب، 2011 م.

(3) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج19، ص 284.

(4) سورة الأنفال، الآية 24.

**في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يُغطّي البياض، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]»[2].**

وهل تعود الصفحة السوداء إلى سابق عهدها ناصعة البياض؟ وهل يعود الإناء إلى سابق عهده بعد انكساره؟ وكم هو الفرق شاسع بين صديق مخلص طوال عمره، وصديق خائن يعتذر ثم يخون ثم يطلب الصفح؟، ثم أيّ ضمان لك أن يُضرب على قلبك ويسودّ بتكاثر الذنوب، فيموت ويعمى، فلا يعود فيه أثر لإشراقة إيمان، ولا أمل لبارقة توبة؛ فتظلم نفسك وروحك فلا يكون عندك انبعاث إلى توبة ولا طاعة؟ نسأل الله عزّ وجلّ السلامة لنا ولكم ولجميع أهل الإسلام، قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**من غرّته الأماني كذبته الآجال**»[3].

إلى كم تجعل التسويف دأباً
أما يكفيك إنذار المشيب؟
أما يكفيك أنّك كلّ حين
تمرّ بغير خلٍّ أو حبيب؟
كأنّك قد لحقت بهم قريباً
ولا يُغنيك إفراط النحيب

## خطر تسويف التوبة

العجب كلّ العجب مِمَّنْ يُسوّف التوبة ويُؤخِّرها، وهو لا يعلم متى ينزل به الموت الَّذي يخطف كلَّ يوم أحداً مِمَّنْ حوله، وعندئذٍ لا ينفع النَّدم، فمن يتناول الطعام السَّام شُبّهة، يُسارع للتخلُّص منه، لأنَّ الزمن الَّذي ينقضي في مثل هذه الحالات، ينقضي بسرعة، والخسارة عندئذٍ لا تُعوَّض، واعلم أنّ التسويف والتأخير من وسوسة الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس، ولا بدّ للعبد أن يستيقظ من نوم الغفلة والجهالة، ويتدارك الموت قبل حلوله، فعند مجيء مَلَكِ الموت لا ينفع حزنٌ ولا ندم. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[4]، فمن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير

(1) سورة المطففين، الآية 14.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص273، وعن النبي صلى الله عليه وآله في مستدرك الحاكم ح:3908.
(3) الآمدي التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، الفصل السابع: الأماني رابطة الأمل والأجل، الحكمة 7280.
(4) سورة سبأ، الآية 54.

ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو، والثاني أن يُعاجله المرض أو الموت، فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو.

سُبحانَ رَبِّكَ ما أَراكَ تَتوبُ
وَالرَأسُ مِنكَ بِشَيبِهِ مَخضوبُ
سُبحانَ رَبِّكَ كَيفَ يَغلِبُكَ الهَوى
سُبحانَهُ إِنَّ الهَوى لَغَلوبُ
سُبحانَ رَبِّكَ ما تَزالُ وَفيكَ عَن
إِصلاحِ نَفسِكَ فَترَةٌ وَنُكوبُ
سُبحانَ رَبِّكَ كَيفَ يَلتَذُّ امرُؤٌ
بِالعَيشِ وَهوَ بِنَفسِهِ مَطلوبُ

## لا دين لمسوّف بتوبته

إنّ التّعجيل في جميع الأمور قبيح إلاّ في التّوبة، فإنّه فيها حسن إذ التأخير موجب للاقتحام في الهلكات وقد قال مولانا رسول اللّه ﷺ لأبي ذرّ الغفاري رضي اللّه عنه: «**يا أبا ذرّ، إنّكم في ممرّ الليل والنهار في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن يزرع خيراً يوشك أن يحصد رغبة، ومن يزرع شرّاً يوشك أن يحصد ندامة، ولكلّ زارع ما زرع**»[1]،

لعلّ غداً يأتي وأنت فقيد
ولا ترج فعل الصالحات إلى غد.

وفي حديث لمولانا الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام قال: «**تأخير التوبة اغترار، وطول التسويف حيرة،...**»[2]، فتأمّل قول اللّه سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾[3]، واعلم أنّ التوبة عند رؤية آيات العذاب، وعند دنّو الأجل غير مقبولة، وهي كتوبة فرعون عند غرقه اذ لم يقبل اللّه توبته، كما جاء في الآية الشريفة: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾[4]،

(1) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص 526، المجلس (19) يوم الجمعة الرابع من المحرم سنة 457 هـ.
(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج6، ص 30.
(3) سورة النساء، الآية 17.
(4) سورة النساء، الآية 18.

قال محمد الهمداني: سألت الإمام الرضا عليه السلام: لأيّ علّة أغرق الله فرعون، وقد آمن به وأقرّ بتوحيده؟.. قال: «**لأنّه آمن عند رؤية البأس، والإيمان عند رؤية البأس غير مقبول**»[1].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾[2]، إذن يجب على المرء أن يُبادر للتوبة عمّا سلف من ذنوبه قبل أن ينزل به الموت، وأن يترك التسويف وطول الأمل، ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**لا دين لمسوّف بتوبته**»[3].

## النفس والتسويف

**يا نفس:** ألا تستحين من التوبيخ والتعنيف، على طول التسويف، والذي يدعوك إلى التسويف اليوم هو معك غداً، وإنّما تزدادين بطول المدّة ردى.

**يا نفس:** مثل أهل الدنيا واشتغالهم بأشغالها، ونسيانهم للآخرة وإهمالها، كمثل قوم ركبوا السفينة في البحر للتجارة، فعدلوا إلى جزيرة لأجل الطهارة، والملّاح يُناديهم: إيّاكم وطول المكث، ودوام اللبث، فمن اشتغل منكم بغير الوضوء والصلاة فاتته سفينة النجاة، فالعقلاء منهم لم يمكثوا، وشرعوا في الوضوء والصلاة ولم يلبثوا، فوجدوا الأمن والعافية، وأماكن السفينة خالية، فجلسوا في أطهر الأماكن وأوفقها، وأطيب المواضع وأرفقها – يا نفس: ومنهم من وقف ينظر إلى شجرة تلك الجزيرة وأثمارها، ويستمع إلى طيب ترنّم أطيارها، ففغلوا لذلك غفلة قليلة، أعقبتهم حسرة طويلة، فلمّا عادوا إلى المركب لم يجدوا مفرجاً، بل مكاناً حرجاً، فقعدوا في أضيق المواطن وأظلمها، وأحرج الأماكن وأشأمها.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج6، ص 23.
(2) سورة يونس، الآيتان 50، 51.
(3) الآمدي التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص 777، الحكمة 223.

**يا نفس:** ما المانع لك من المبادرة إلى صالح الأعمال، وما الباعث لك على التسويف والإهمال، وهل سببه إلا عجزك عن مخالفة شهوتك، وضعفك عن مؤالفة أئمّتك؟ وهب أنّ الجهد في آخر العمر نافع، وأنه مرق إلى أسعد المطالع، فلعل اليوم آخر عمرك، ونهاية دهرك[1].

ومن أدعية مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنت وليّ ومولاي وعليك رزقي، وبيدك ناصيتي، فصلّ على محمد وآل محمد، وافعل بي ما أنت أهله، وعد بفضلك على عبد غمره جهله، واستولى عليه التسويف حتى سالم الأيام، فاعتقد المحارم والآثام، فاجعلني سيّدي عبداً يفزع إلى التوبة**»[2].

## من غصص التسويف

إنّ التسويف مظنّة عروض الشواغل، وسبب فوات الربح، وانقطاع العمل، وسبب حصول الخسران، فمن عاش بين مجزّئ للدين ومسوِّف وعاصٍ وناكر للنعم وجاحد لحقّ المنعم، فلن يبتعد حاله مطلقاً عن حال الضالّين، كما أنّ التسويف هو سبب رئيس في تخلّف المتخلّفين عن الالتحاق برسول ربّ العالمين.

وكم جرّع المسوّفون أولياء الله تعالى غصصاً، ولقد كان القدر الأكبر من هذه الغصص من نصيب ولي الله الأعظم أمير المؤمنين عليه السلام، ويكفي المؤمن أن يتأمّل بعض خطبه المروية في نهج البلاغة كي يستشعر مرارة ما لاقاه عليه السلام من المسوّفين المتخاذلين، وخذ إليك مثلاً قوله عليه السلام: «**أيّها النّاس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم. كلامكم يوهي الصّمّ الصّلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء، تقولون في المجالس: كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتم: حيدي حياد ما عزّت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم.أعاليل بأضاليل، وسألتموني التّطويل دفاع ذي الدّين المطول. لا يمنع الضّيم الذّليل. ولا يُدرَك الحقّ إلاّ بالجدّ. أيّ دار بعد داركم تمنعون، مع أيّ إمام بعدي تقاتلون؟ المغرور والله من غررتموه، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسّهم الأخيب، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل (أي بسهم ليس له نصل، فهو لا يُصيب). أصبحت والله لا أُصدّق قولكم، ولا أطمع في نصركم، ولا أوعد العدوّ بكم..**»[3].

---

(1) تقي الدين إبراهيم بن علي الكفعمي، محاسبة النفس، ص 174 – 201.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج87، ص 208.

(3) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج2، ص 111.

وبعد أن هجم جنود معاوية على الأنبار، وقتلوا من قتلوا ونهبوا ما نهبوه قال عليه السلام: «.. **فيا عجباً، والله، يُميت القلب ويجلب الهمّ اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم، فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يُرمى: يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزون ولا تغزون، ويُعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الصيف قُلتم: هذه حمّارة القيظ أمهِلنا يسبخ عنّا الحرّ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قُلتم: هذه صبّارة القرّ أمهلنا ينسلخ عنّا البرد، كلّ هذا فراراً من الحرّ والقرّ، فأنتم والله من السيف أفرّ، يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال، وعقول ربّات الحجال، لوددت أنّي لم أركم ولم أعرفكم معرفة، والله جرّت ندما وأعقبت سدماً. قاتلكم الله لقد شحنتم صدري غيظاً، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: إنّ ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم وهل أحد منهم أشدّ لها مراساً وأقدم فيها مقاماً منّي؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرّفت على الستّين، ولكن لا رأي لمن لا يُطاع**»[1]. فتأمّل كلامه عليه السلام تجد وقع تسويف المتخاذِلين كم جرّ عليه وعلى أهل الإيمان من الآلام إلى يومنا هذا.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج5، ص 6، باب فضل الجهاد.

# الغفلة والتواني

## نــصّ الــوصــيّــة

- قال الإمام أبو جعفر مُحمد بن علي الباقر عليه السلام موصياً تلميذه النجيب جابر الجعفي:

«وإيّـاك والغفلـة ففيها تكون قسـاوة القلـب، وَإِيَّـاكَ وَالتَّوَانـيَ فِيمَـا لا عُذْرَ لَكَ فِيهِ، فَإِلَيْهِ يَلْجَأُ النَّادِمُونَ»[1].

(1) العلامـة المجلسـي، بحـار الأنـوار، ج75، ص164، باب وصايا الباقر عليه السلام.

## مصيبة الغفلة

قال الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

إنّ الغفلة عن الله تعالى تزيد كدورة القلب، وتُمكّن النفس والشيطان من التغلّب على الإنسان وتزيد في المفاسد. في حين أنّ ذكر الله واستحضار ذكره يُصقلان القلب ويُكسبانه الصفاء، ويجعلانه مجلى للمحبوب، ويُصفّيان الروح ويُخلّصان الإنسان من قيود أسر النفس[2].

والغفلة أيّها الإخوة سبب عظيم من أسباب الضلال والانصراف عن الهداية، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[3].

والغفلة سبب من أسباب عقوبة الدنيا وسوء الخاتمة، قال تعالى يُذكّر آل فرعون حين ذكّرهم بالآيات فلم يتذكّروا بها: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[4].

والغفلة من أهمّ أسباب دخول النار قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝٧ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[5]. وهل ترى أهل الدنيا اليوم إلا غافلين عن الحقّ، لاهين عن التوحيد والإذعان للرسل والملائكة والكتاب والنبيّين واليوم الآخر مع اختلافهم في مراتب الغفلة والبعد، كما كانوا كذلك في الأمس وما قبل الأمس، مكتفين بما يُلازم عنوان الغفلة من الإترف بالنعم والفرح والمرح بها واللعب واللهو.

---

(1) سورة الأعراف، الآية 179.

(2) الإمام الخميني قدس سره، الكلمات القصار مواعظ وحكم، ج1، ص 2.

(3) سورة الأعراف، الآية 146.

(4) سورة الأعراف، الآية 136.

(5) سورة يونس الآيتان7-8.

## من هوان الدنيا على الله

من هوان الدنيا على الله تعالى أن يغفل الإنسان عمّا خُلق له، فيتهاون في الوقوع في المعاصي صغيرها وكبيرها، ويغفل الإنسان عمّا خُلق له فيتهاون في أداء الواجبات، ويغفل الإنسان عمّا خُلق له، فلا يتأثّر بالنصحية ولا يقبلها، يغفل الإنسان عمّا خُلق له، فيغترّ بما عنده من الحسنات، ويُعجب بأعماله، والبعض من الغافلين يمنّ بها على ربّه ذي المنّ الذي لا يُمنّ عليه، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

فأيّها الناس تفرّغوا من هموم الدنيا ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً، واجعلوا همّكم في آخرتكم التي ستنتقلون إليها، وآثروا ما يبقى على ما يفنى، واعملوا وادّخروا من الباقات الصالحات، ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1]، واحذروا من الغفلة فهي سبب كلّ حجاب.

الموت في كلّ حين ينشد الكفنا
ونحن في غفلة عمّا يُراد بنا
لا تركننّ إلى الدنيا وزهرتها
وإن توشّحتَ من أثوابها الحسنا

قال مولانا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**ومن غفل غرّته الأماني، وأخذته الحسرة إذا انكشف الغطاء، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب**»[2].

## أسباب الغفلة

من أعظم أسباب الغفلة نسيان الغاية من الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3]، فربّنا سبحانه خلقنا لغاية عظيمة ولم يتركنا هملاً، قال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[4]، فكلّما نسي الإنسان الغاية من خلقه وقع في الغفلة، وقد جاءت النصوص الشريفة الواردة عن أنبياء الله تعالى وأئمة الهدى عليهم السلام لتُحذّرنا من الغفلة وتؤكّد علينا ضرورة استمرار

(1) سورة الكهف، الآية 46.
(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار ج 69، ص90.
(3) سورة الذاريات، الآية 56.
(4) سورة المؤمنون، الآيتان 115و 116.

التنبّـه واليقظـة، وأنّنا لم نُخلق عبثاً، بل خلقنا لأمر عظيـم، وهو طاعة الله تعالى وتحقيق العبودية لـه، فيتوجّـب علينـا أن نحرص تمـام الحرص على أن لا نكون مـن الغافلين، وأن لا يغيـب عنّا أبداً الهدف العظيم الذي من أجله خلقنا الله، وجعله تعالى مصدراً لعزّتنا وكرامتنا، فلا تأخذنا الغفلة، وبالتّالي نضّيع أنفسنا بالعيش بلا هدف:

قـد هـيـأوك لأمـر لـو فـطـنـت لـه
فـاربـأ بـنـفـسـك أن تـرعـى مـع الـهـمـل.

ومـن أسبـاب الغفلة: التساهل في الوقـوع في الذنوب، فكلّما تهاون المسلـم في ارتكاب الذنوب جاءت الغفلة واستولت على قلبه، قال رسول الله ﷺ: «**تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عـوداً عـوداً**[1]، **فـأيّ قلب أشـربها نكتت فيه نكتة سـوداء، وأيّ قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضـاء، حتـى تعود القلوب على قلبين: قلب أسـود مربـاداً**[2] **كالكـوز مجخيا**[3]، **لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض فلا تضرّه فتنة ما دامت السماوات والأرض**»[4].

فهذا يتساهل في نظرة محرّمة، وهذا يتساهل في أكل الربا، وهذا يتساهل في الغيبة والوقوع في أعراض الناس، وهذا يتساهل في عقوق والديه وقطيعة رحمه، فهذا التساهل يوقع القلب في الغفلة، فلا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى عظم من عصيت:

إِذا مـا خَـلَـوتَ الـدَهـرَ يَـومـاً فَـلا تَـقُـل
خَـلَـوتُ وَلَـكِـن قُـل عَـلَـيَّ رَقـيـبُ
وَلا تَـحـسَـبَـنَّ اللَّهَ يُـغـفِـلُ مـا مَـضـى
وَلا أَنَّ مـا يَـخـفـى عَـلَـيـهِ يَـغـيـبُ

قال مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «**إيّاكم والغفلة، فإنّه من غفل، فإنّما يغفل عن نفسه، وإيّاكم والتهاون بأمر الله عزّ وجلّ، فإنّه من تهاون بأمر الله أهانه الله يوم القيامة**»[5].

---

(1) في ميزان الحكمة ذكرت: عوداً عوداً. قال ابن الأثير: «عودا عودا: الرواية بالفتح، أي مرة بعد مرة. وروى بالضم، وهو واحد العيدان، يعنى ما ينسج به الحصير من طاقاته. وروى بالفتح مع ذال معجمة، كأنه استعاذ من الفتن (عوذ)، يقال: عذت به أعوذ عوذا وعياذا ومعـاذا: أي لجـأت إليـه. والمعـاذ المصدر، والمكان، والزمان: أي لقـد لجأت إلى ملجأ ولذت بمـلاذ». (النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين ابن الأثير، جزء3 : ،ص318).

(2) مرباداً: متغيّراً إلى الغبرة، مائلاً إلى الرمادي.

(3) مجخيا: مائلاً، وفسّره البعض بالنكوس.

(4) المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي، ج12، ص15، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2000م.

(5) أحمد بن محمد بن خالد البرقي، المحاسن، ج1، ص 96، الطبعة 2: دار الكتب الإسلامية، قم.

## الغفلة تُقسّي القلب

«الغفلة هي الحالة الأخرى التي تقع في الطرف المقابل للعجلة والمسارعة في فعل الخير. فالإنسان الغافل أساساً ينسى تكليفه وينشغل بأمر آخر. يقول الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «وإيّاك والغفلة ففيها تكون قساوة القلب». ويقول عزّ من قائل في وصفه لحوار يدور بين المنافقين والمؤمنين في يوم القيامة: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾[1]؛ أي: يقول المنافقون للمؤمنين: ألم نكن معكم؟! بمعنى: ألم نكن أهل حيّ واحد، وروّاد مسجد واحد، ورفقاء في الجهاد، و...الخ؟ فما الذي أوصلكم إلى كلّ هذه السعادة وأبقانا في هذه الظلمة الحالكة؟ فيُجيب المؤمنون: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾[2]؛ أجل لقد كنتم معنا؛ لكنّكم كنتم تُسوّفون في الأمور وتؤجّلون عملكم إلى غد وبعد غد، وتُقدّمون رجلاً وتؤخّرون أخرى، فاستولى الشكّ والريبة عليكم شيئاً فشيئاً. فقد أقررتم في بادئ الأمر بضرورة الإتيان بهذه الواجبات لكنّكم كنتم تسوّفون في الأمر فكانت النتيجة أن تولّد عندكم بالتدريج شكّ في أصل هذه الواجبات وتساءلتم: هل إنّ القيام بها يُعدّ ضرورياً أساساً؟ فغلبت عليكم الآمال والأمانيّ وخدعتكم وغرّتكم. وهذه هي سلسلة المراحل التي يُمكن أن تطرأ على الإنسان فتزيح قدمه شيئاً فشيئاً عن مسير الحقّ وتصرفه عنه. فمثل هذا الإنسان قد يفتح عينه فجأة فيرى نفسه قد انحرف بزاوية 180 درجة عن مسير الحقّ.

يقول الله عزّ وجلّ في آية أخرى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[3]، فإذا حُرم القلب لمدّة من إفاضة نور الهداية عليه من قِبَل الله عزّ وجلّ وشغلته عوامل الغفلة بروتين الحياة ورتابتها فسوف يفقد حالة الرقّة والانفعال ولا تعود حتّى الموعظة مؤثّرة فيه فينسى - شيئاً فشيئاً - أنّه من أجل ماذا خُلق أساساً؟ وإلى أين وجهته؟ ولماذا بُعث الأنبياء؟ ومن أجل ماذا جُعلت منظومة الرسالة والإمامة والشهادة؟ وما إلى ذلك. وهذا النسيان والغفلة يُقسّيان القلب ويجعلانه كالصخر.

---

(1) سورة الحديد، الآية 14.

(2) سورة الحديد، الآية 14.

(3) سورة الحديد، الآية 16.

من أجل ذلك يقول عليه السلام: «**وإيّاك والغفلة ففيها تكون قساوة القلب**»؛ فإيّاك والابتلاء بالغفلة واللامبالاة فهي من موجبات قساوة القلب، ومع الأسف فإنّ الثقافة العالميّة المعاصرة تتّخذ هذا المنحى؛ وهو محاولة نسيان كلّ ما يوجب الغمّ والهمّ والحزن والخوف وأمثالها وعدم التفكير فيه والركون إلى اللامبالاة، في حين أنّ الغفلة واللامبالاة من شأنهما أن يقسّيا قلب الإنسان فلا يعود قول الحقّ مؤثّراً فيه مهما سمعه»[1].

## فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلوبُهُم

حين تجفّ داخلَ النفس الإنسانية عاطفة الإحساس بآلام الآخرين وحاجاتهم، وحين تنعدم من القلوب الرحمة تحلّ القسوة بالقلوب فتتحوّل إلى مثل الحجارة التي لا ترشح بأيّ عطاء، أو أشدّ قسوة من الحجارة؛ لأنّ من الحجارة ما تتشقّق منه الأنهر، فيندفع العطاء من باطنه ماءً عذبًا نقيًا، ولكن بعض الذين قست قلوبهم ينعدم فيهم كلّ أثر للفيض والعطاء. وقد وصل أقوام إلى هذا الحال من القسوة وانعدام الرحمة، فقد وصف الله قلوب اليهود فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2].

إنّ من الحجارة ما يخرج منه العطاء، أمّا قلوب هؤلاء فلا يخرج منها شيء من الرحمة، فهي محافظة على قسوتها واستكبارها. ثم بيَّن الله سبحانه السبب الذي لأجله قست قلوب أهل الكتاب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[3].

إنّ أيّة أمّة يطول عليها الأمد وهي تتقلّب في بحبوحة النعم على فسق وفجور ومعصية ونسيان لربّها، تقسو قلوبها فلا تخشع لذكر الله وما نزل من الحقّ، وبهذا يبتعدون عن مهابط الرحمة فتزداد القلوب قسوة،، فهي لا تلين عند ذكر الله، وتظلّ معرضة عنه، ولا يزيدها التذكير بالله إلا قسوة ونفورًا، فأولئك الويل لهم: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[4].

---

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 20 آب، 2011م.

(2) سورة البقرة، الآية 74.

(3) سورة الحديد، الآية 16.

(4) سورة الزمر، الآيتان 22 و 23.

إنّ أصحاب هذه القلوب القاسية هم أبعد الناس عن الله، والأمر كما قال مولانا رسول الله ﷺ «**لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإنّ أبعد القلوب عن الله القلب القاسي**»[1]. وقال حفيده الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**إنّ لله عقوبات في القلوب والأبدان: ضنك في المعيشة، ووهن في العبادة، وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب**»[2].

إنّ حرارة الإيمان تستطيع أن تُبلسم القلوب فتلينها وترقّقها، إذا غُذّيت بالعمل الصالح والإكثار من الذكر، وإذا أراد من يشعر بقساوة في قلبه أن يعود لفطرته، فما عليه إلا العمل على مراقبة عدل الله، وفضله وسلطانه المهيمن على جميع خلقه. عند ذلك يجد أنّ قلبه بدأ يَرقّ ويخشع.. ومتى وصلت القلوب إلى هذه المرحلة تدفّقت منها الرحمة. أمّا عند غياب هذه المعاني الإيمانية عن القلوب فإنّها تتيه في ظلمات الضلال والغواية والعصيان، فتقسو وتتكبّر، وما أعظمها من عقوبة، والعجب أنّ صاحب هذا القلب لا يشعر بأنّه معاقب. وما أشدّ هذه العقوبة وأعظمها!!

## لماذا الضعف والتواني؟

أمّا في الحالة الثالثة فالمرء لا يكون ناسياً لتكليفه ولا يسوّف في أدائه بل هو يحاول الإتيان به لكنّه يؤدّيه بتثاقل وتكاسل. يقول الإمام عليه السلام في هذا المورد: «**وَإِيَّاكَ وَالتَّوَانِيَ فِيمَا لا عُذْرَ لَكَ فِيهِ**»؛ لا تضعف عند أداء التكليف الذي ليس لديك أيّ عذر لتركه! فعندما يبدأ الإنسان العمل بتكاسل وتثاقل يكون الأمل في نجاحه فيه ضعيفاً بل غالباً ما يتركه في منتصف الطريق. فيا أيّها العزيز! إذا كنت تعرف تكليفك، وتملك القدرة على العمل به، وقد اتّخذت القرار لأدائه، فلماذا هذا التكاسل والتثاقل إذن؟

## انتهاز الفرص

«كلّما قصّرنا وتوانينا ضاعت الفرصة من أيدينا. يقول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**الفرصة تمرّ مرّ السحاب فانتهزوا فُرَص الخير**»[3]، فكما أنّ السحاب يمرّ بسرعة وأنّك لا تراه بعد ساعة إذا نظرت إلى السماء ثانيةً، فإنّ الفرص تضيع من اليد بهذه السرعة أيضاً. وعندما تضيع فرصة فعل خير فإنّها لا تُعوّض بأيّ شيء. فإنّنا نستطيع - في كلّ لحظة، ومن دون أن يلتفت أحد إلى ذلك، ومن غير أن يحصل أدنى تغيير في وضعنا الجسمانيّ - أن نوجّه قلبنا إلى الله تعالى وإلى أوليائه.

---

(1) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص 3، المجلس.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص 176.

(3) نهج البلاغة، الحكمة 21.

فهـذا العمـل لا يتطلّب منّا أيّ مشقّـة، بل هو حُلو وعذب لأنّ فيه ذكـر الحبيب، وهو ينطوي على بركات جمّة للإنسان؛ فهو يدفع عنه البلاء، ويبعد عنه الشيطان، ويكمّل نقائصه، ويوفّقه في أموره. فالله جلّ وعـلا يقول في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾[1]، وليس بالضرورة أن يكـون الذكر باللسـان، بل إنّ أصل الذكر هو التفات القلب، إذ يقـول عزّ من قائل في آية أخرى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾[2]، فهـو لا يقـول: «أو أكثـر ذكراً»، بل يقول: ﴿أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾، وشـدّة الذكـر هي في كيفيّته لا في كمّيته. فكلّمـا زاد التفات المرء في أثناء الذكر زادت شدّته. وهذا الأمر مقدور لنا جميعاً.

لكن هل إنّنا نُشدّد من ذكرنا لله في أوقات فراغنا يا ترى؟ فبعض الناس إذا فرغوا لبعض الوقت تطـرأ على أذهانهـم آلاف الأفكار المضطّربة والخاطئة، وسوء الظـنّ بالآخرين، والتخطيط لأمور الدنيـا، وما إلى ذلك، فإن لم يُفكّروا بأيّ شيء من ذلك، سلّوا أنفسهم بحلّ الكلمات المتقاطعة، أو مشاهدة فيلم، أو شيء من هذا القبيل. لكنّهم، وعلى الرغم من كلّ ما يحمله ذكر الله وأوليائه من البركة، فإنّهم لا يذكرون الله ولو للحظة.

فكـم كان علماؤنا العظام يوصون بقراءة القرآن وكم كانوا ملتزمين بقراءته؟ فلنقرأ ولو صفحة واحـدة من القـرآن الكريم في وقت فراغنا. فلقد كان الإمام الخمينـيّ الراحل (رضوان الله تعالى عليـه) مع كلّ مـا يشغله من أعمـال ومسؤوليّات حريصاً علـى قراءة القرآن بضع مـرّات في اليوم والليلـة. فما بالنا ونحن نملك الفرصـة، وأبداننا سليمة معافاة، وأعيننا لا تشكـو أيّ مشكلة؟! فإنّ علينا أن نقرأ القرآن ما استطعنا. بيد أنّنا نتقاعس عن ذلك.

هناك مضمون ورد بشكل مستفيض في الروايات ولعلّنا إذا فتّشنا مصادر الشيعة والسنّة وجدناه متواتراً أيضاً، وهو «**أنّ الله يغرس في الجنّة شجرة لكلّ من يتلو التسبيحات الأربع**»[3]. إذن نحن نستطيـع فـي كلّ لحظة أن نغرس لنـا شجرة في الجنّة، لكنّنا نُفرّط بهـذه الفرص بكلّ سهولة. فكلّ ألـوان الكلمـات تصدر من أفواهنا لكنّنا نتوانى عن تسبيح الله عزّ وجلّ. وهذه الحالة إنّما تدلّ على تسلّط عامل آخر علينا وهو ما يُدعى في الأدب الدينيّ «**الشيطان**». فلماذا ينبغي للإنسان أن ينخدع

---

(1) سورة الأحزاب، الآية 41.

(2) سورة البقرة، الآية 200.

(3) عن رسول الله ﷺ: «... **قل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر فليس منها كلمة تقولها إلاّ غرس الله لك بها شجرة في الجنّة**»، (مجموعة ورام، ج1، ص68). وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**قال رسول الله** ﷺ: مَن قال: **سبحان الله، غرس الله له بها شجرة في الجنّة. ومن قال: الحمد لله، غرس الله له بها شجرة في الجنّة. ومن قال: لا إله إلاّ الله، غرس الله له بها شجرة في الجنّة. ومن قال: الله أكبر، غرس الله له بها شجرة في الجنّة**»، (وسائل الشيعة، ج7، ص186).

إلــى هذا الحدّ بموجــود قد أخبر الله سبحانه عمّا يضمره من عــداوة وبغضاء لابن آدم؟! فالله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾[1].

إذن علينا أن نُشمّر عن سواعدنا ونبدأ بالأمور الصغيرة كي نتمكّن من استغلال أعمارنا؛ ذلك أنّنا سنفتح أعيننا ذات يوم لنرى أنّنا قد فرّطنا بكلّ الفرص. فنحن - ولله الحمد - حريصون جميعاً على أداء الصــلاة لكــن لماذا كلّما دخــل وقت الصلاة بادرنا - كلّ حين - إلى اختــلاق أيّ عذر لتأخيرها؟ فساعــة بحجّة تناول الطعــام، وساعة بذريعة الاستراحة، وساعة بحجّــة مشاهدة الأخبار أو فيلم عبر التلفزيــون، حتّى يشــرف الوقت على نهايته فنُصلّيها فــي آخره! أيّها الإخوة والأخــوات الأعزّاء! صلّوا فريضتكم التي لا تستغرق أكثر من بضع دقائق في أوّل وقتها ولا تسمحوا للشيطان أن يخدعكم.

يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**إيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه فإليه يلجأ النادمون**»، وهناك احتمالان في معنى هذا القول، وإنّ التفسير الأوّلي في نظري هو أنّ الضمير «**إليه**» يعود إلى «**العذر**»؛ بمعنى: عندما يندم الناس يلجؤون إلى العذر. فعندما يندم المرء بسبب عدم إنجاز أمر مّا أو يوبّخه الآخــرون على ذلــك فإنّ بإمكانه اللجوء إلى العذر إن كان لديه عــذر. لكنّك سليم معافىً وليس من مانــع يمنعــك من الإتيان بفعل الخير فلمــاذا التقصير؟! فجعل القلب ملتفتاً إلــى الله لا يحتاج إلى جهد بدنيّ، ولا إلى إنفاق مال، ولا إلى شدّ الرحال والسفر؛ إذن فلماذا نتوانى عن ذلك؟!

فبعد أن يُبيّن الإمام عليه السلام السبيل إلى الفوز بحبّ الله عزّ وجلّ فإنّه يتبعها بالأمور الآنفة الذكر. فهــو عليه السلام وكأنّه يُريد أن يقــول في العبارة السابقة: إذا أرَدتَّ الظفــر بمحبّة الله فعجّل في حركتك وفي القيام بالخيرات! ثمّ يقول بعد ذلك: وإيّاك في مقابل ذلك أن تُبتلى بالتسويف وتأجيل الخير إلى غد أو بعد غد حتّى ينتهي الأمر إلى ترك عمل الخير تماماً أو الابتلاء بالغفلة التي تؤدّي - من الناحية العمليّة - إلى ترك الخير أيضاً، مضافاً إلى ما ينجم عنها من قسوة القلب. لكنّك إن لم تكن من أهل الغفلة وكنت عازماً على الإتيان بفعل الخير، فاحذر من التواني والتكاسل فيه وأسرع في إنجازه[2].

جعلنــا الله وإياكم مــن الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وصلــى الله على المصطفى وآله الأطهار.

---

(1) سورة فاطر، الآية 6.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 20 آب، 2011م.

# الاستغفار والمراجعة

## نصّ الوصيّة

- قال الإمام أبو جعفر مُحمد بن علي الباقر عليه السلام موصياً تلميذه النجيب جابر الجعفي:

«وَاسْتَرْجِعْ سَالِفَ الذُّنُوبِ بِشِدَّةِ النَّدَمِ وَكَثْرَةِ الاسْتِغْفَارِ، وَتَعَرَّضْ لِلرَّحْمَةِ وَعَفْوِ اللهِ بِحُسْنِ الْمُرَاجَعَةِ، وَاسْتَعِنْ عَلَى حُسْنِ الْمُرَاجَعَةِ بِخَالِصِ الدُّعَاءِ وَالْمُنَاجَاةِ فِي الظُّلَمِ»[1].

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص164، باب وصايا الباقر عليه السلام.

## تشريع الاستغفار

إنّ مـن أعظـم ما شرّعـه الله تعالى لنا: كثـرة الاستغفار، وقد أمر الله تعالـى نبيّه الخاتم ﷺ بالاستغفـار فـي مواضع كثيـرة من كتابه، قـال الله عـزّ وجـلّ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾[1]، فهـذا خطـابٌ لسيّد الذيـن عصمهم الله تعالى، مـع أنّه كان يصوم حتـى يقولون: لا يفطـر، وكان يقـوم الليل أكثـره، وربما قام الليل كلـه، وكانت كل حياته ﷺ جهـاداً في سبيل الله، ودعـوة إلـى الله، وابتلاء، وصبراً، ومع هـذا كلّه، وللأهمية الكبيرة والمنزلـة العظيمة التي يحظى بهـا الاستغفار، فإنّ الله تعالى خاطبه بقولـه: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾[2]، وخاطبـه جـلَّ وعـلا بقولـه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[3]، وخاطبه بقوله جلّ شأنه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾[4].

وإنّ مـن تدبّر آيـات الفرقان الحكيم يصبح على يقين أنّ كثرة الاستغفار تُعدّ من أعظم أسباب القوّة، فقد قال الله تعالى على لسان نبيّه هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ ﴾[6].

## الاستغفار بعد الطاعة

الاستغفـار يكون -أيُّها الأحبّة- في كلّ حال، ليس الاستغفـار خاصّة بحال المعصية كما يتصوّر الجهّـال، كلا! بـل الاستغفار يكون حتى في حال الطاعة، ولهذا فالله عزّ وجلّ أمر رسوله والمؤمنين أنْ يستغفروه وهم في حال التلبّس بالإحرام، والنسك، والخضوع لله جلَّ وعلا، فقال: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[7].

---

(1) سورة مُحمد، الآية 19.

(2) سورة مُحمد، الآية 19.

(3) سورة النساء، الآية 106.

(4) سورة غافر، الآية 55.

(5) سورة هود، الآية 52.

(6) سورة هود، الآية 3.

(7) سورة البقرة، الآية، 199.

فـإذا أفاض الناس من عرفة مخبتين لله، ضاحين لمن أحرموا له، خالعين الدنيا كلّها، أمرهم الله تعالـى بـأن يستغفروا الله تعالـى، وهكذا كان حال النبيّ الأكـرم ﷺ، إذا انصرف من صلاته أكثـر الخلـق استغفاراً، فهـو يستغفر الله تعالى عقـب الطاعة!! ومطلوب من العبـد أن يستغفر الله تعالى عقب كلّ طاعة؟ لأنّ هذه الطاعة التي يقوم بها العبد لا تخلو من تقصير، أو غفلة، أو سهو، أو تفريـط، أو شيءٍ لا يُحيط به الإنسان، فيقـول: أستغفر الله عمّا يكون في هذه العبادة من نقصٍ، أو خطأ، أو سهو، أو تقصير.

ثـم إنّ استغفارك عقب الطاعة إشعارٌ بأنّ هـذه الطاعة شيءٌ قليل إلى جنب ما يجب لله الجليل عـزّ وجلّ، وأنّ هـذه الطاعة نفسها هي من فضله وامتنانه وإحسانـه سبحانه وتعالى، فحينئذٍ يكون استغفـار العبـد كالداعي الـذي يقول: ربِّي سامحني عـن التقصير في أداء شكـرك وحقّك، واعلم أنّ العبـد قد يُداخله نوعٌ مـن العُجْبُ والاغترار بعمله، وهذا العُجب قد يُحبـط العمل، فإذا استغفر الله عقـب العبـادة: معنـاه أنّ هـذا العبـد صاحب قلب يريـد أن يكـون عارفاً بحـقِّ الله جلَّ وعلا، عارفـاً بتقصيره، معترفـاً بعظيم جرمه، وهذا بإذن الله تعالى يكون وقايـةً من كيد الشيطان الذي يُزيّـن العجب والغـرور للإنسان، فهذا من معاني استغفار المسلم عقـب الطاعة، وورد عن الرسول الأكرم ﷺ قال: «**طوبى لمن أخلص لله العبادة والدّعاء، ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه**»[1].

## تصفّح الأعمال

«يبـدو أنّ الإمـام الباقر عليه السلام، وبعـد إشارته إلى الفضائـل الإنسانيّة والمقامـات التي جعلها الله تعالـى للإنسان والسبُل التي توصلـه إلى تلك الفضائل والكمالات - كأنّه يُريد أن يقول عليه السلام: تصفّح صحيفة ما سلف من ذنوبك وحاول أثناء هذا التصفّح أن تستشعر ندماً شديداً وتستغفر الله كثيـراً، ومن أجل أن تكون في معرض رحمة الله تعالى وعفوه حاول تغيير منهج حياتك والتوجّه نحو الله عزّ وجلّ، ولكي تُكلَّل جهودك بالنجاح في هذا الطريق، فاعمل على الاستعانة بالدعاء والمناجاة في غياهب الظلمات.

ولعلّ في تقارن ذر هذه الكلمات مع ليالي القدر المباركة وسيلة لحثّ المرء على تخصيص ساعة مـن وقتـه ليختلي إلى نفسه مراجعـاً ماضيه ومقلّباً صفحاته ما أمكـن، وليكن ذلك في ظلام الليل الدامس كي لا يُشغل فكرَه شيءٌ قطّ، فليستحضر في مخيّلته كلّ ما اقترفه - من زمان بلوغه إلى الآن

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 16.

– من معاصي وليسجّلها إن أمكن، فإذا استطاع المرء على الأقلّ أن يتذكّر بعض ذنوبه التي لا يرغب حتّى بتذكّرها من شدّة قبحها ويدوّنها فإنّ في ذلك فائدة عظيمة؛ لأنّ ذلك أبلغ في تجسيد قباحة أعماله وتصوير كثرة ذنوبه في عينه، ثمّ يسأل بعد ذلك نفسه السؤال التّالي: ما الذي كان بمقدوري صنعه من الصالحات تكفيراً عمّا بدر منّي لعلّ ذلك يتسبّب في غفران خطيئاتي ورفع درجاتي؟

فيُسجّل هذه الأعمال الصالحات في عمود آخر في مقابل الأوّل، فلعلّ من شأن هذا العمل أن يولّد في نفس المرء حالة من الندم الشديد؛ بالضبط كالرجل الثريّ الذي كان يملك ثروات ضخمة، وكان بإمكانه الانتفاع منها لجني ربح عظيم لكنّ النيران شبّت فيها دفعة واحدة، فما الذي سيكون عليه حالُه يا ترى؟! فإنّ مجرّد تخيّل الإنسان كيف أنّه لم ينتفع من رأس ماله كما ينبغي، بل إنّه قد فعل به ما أدّى إلى اشتعال النيران فيه واحتراقه هو نفسه فيها – نقول إنّ تخيّل هذه الحال يولّد في نفس الإنسان منتهى حالة الانقطاع والندم ويبعث في نفسه الاستعداد للتوبة إلى الله توبة نصوحاً، فالتوبة تستدعي ندم المرء على ماضيه بصورة تدفعه إلى اتّخاذ قرار حاسم بعدم تكرار هذه الأفعال القبيحة ثانيةً، وبالاستعاضة عنها بأعمال صالحة»[1].

## حلاوة المناجاة تُشعِر بمرارة الذنوب

«لكنّ المشكلة تكمن في أنّ المذنب قد تعوّد على الذنوب وذاق حلاوة المعصية فلا يستطيع ببساطة أن يتّخذ قراراً بتركها جميعاً. بالطبع كلّما حاول التفكير أكثر بما فرّط به من رأس مال وأمعن في تجسيد ما يشكوه من حالة البؤس والشقاء زاد لذلك ندمه وترسّخ عزمه على تغيير مسيرة حياته، وهنا كأنّ إمامنا الباقر عليه السلام يقول: «من أجل أن تتمكّن من تنفيذ هذا القرار على أرض الواقع وتنجح في تغيير مسيرة حياتك فعليك بالدعاء والمناجاة في الظلام»! فعندما يُصمّم المرء على عدم العودة إلى ارتكاب المعاصي ولكي يأمن من خداع الشيطان له مرّة أخرى، فما عليه إلاّ الاستعانة بالله ومدّ يد الحاجة والمسألة، والتضرّع إليه عزّ وجلّ.

فليس من السهل أن يُقرّر المرء تغيير مسير حياته وترك كلّ خطيئاته، وانتزاع قلبه من جميع تعلّقاته وأن يوجّه وجهه لله وحده، فهو بحاجة إلى مَن يُساعده على ذلك، وإنّه لا بدّ أن يتذوّق من اللذّة ما يصرفه عن لذّة الذنب، فنحن نقرأ في المناجاة الشعبانيّة التي هي أفضل مناجاة وردت عن أهل البيت عليهم السلام: «**إلهي لم يكن لي حولٌ فأنتقل به عن معصيتك إلاّ في وقت أيقظْتَني**

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 21 آب، 2011م.

**لمحبّتك»**[1]؛ أي: لم تكن لي قدرة على الكفّ عن المعصية إلاّ عندما أذقتني محبّتَك وعرّفتني بها. فالحقيقة هي أنّ المرء ما لم يذق لذّة أسمى وأفضل، فإنّه لا يكفّ عن اللذّة الأدنى، والإنسان تارةً يظفر بهذه اللذّة الأسمى بشكل فوريّ ونقداً، وتارةً أخرى تكون أمراً مستقبلياً يتعيّن على المرء التفكير به، فأمّا الشكل الثاني فلا يكون له في العادة مفعول يُذكر، فالإنسان عادةً ما يميل إلى اللذّة الملموسة المعطاة بشكل نقديّ، ومن هنا فإنّه إذا أذاق الله الإنسانَ قبل يوم القيامة حلاوةً آنيّة تفقد معها كافّة أشكال الحلاوة الأخرى طعمها في ذوقه، وأراه جمالاً تتلاشى في مقابله أنوار كلّ ألوان الجمال، فسيكون من السهل عليه في هذه الحالة أن يكفّ عن المعصية. ولهذا كأنّ الإمام عليه السلام يريد أن يقول: «من أجل أن تتوب عن السبيل الخاطئة توبة نصوحاً وتهتدي إلى جادّة الصواب وتستمرّ فيها فاستعن بالدعاء، المناجاة في الظُّلَم»، فإذا منح الله تعالى أحداً توفيق الأنس به وذاق الأخير حلاوة مناجاة ربّه، فسيُقلع عن اقتراف الذنوب بكلّ سهولة ولن تعود للخطيئة جاذبيّة في نظره. فالمرحوم آية الله بهجت يقول: «لو علم ملوك العالم ما في الصلاة من لذّة لتركوا لذّات سلطانهم وهرعوا نحو الصلاة». كما ونُقل عن المرحوم العلاّمة القاضي (رضوان الله تعالى عليه) قوله أيضاً: « لو لم تكن في الجنّة صلاة فعلامَ أطلبُ الجنّة إذن »؟ إذن يتعيّن علينا نحن كذلك أن نُبعد عن أنفسنا موانع الأنس بالله جلّ وعلا ومناجاته.»[2]

## حبّ الدنيا، يُعيق حبّ الله

«إنّ ما يمنع المرء من تذوّق حبّ الله هو التعلّقات الدنيويّة. فقد جاء في حديث المعراج عن قول الله تبارك وتعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: «**يا أحمد! لو صلّى العبد صلاة أهل السماء والأرض و... ثمّ أرى في قلبه من حبّ الدنيا ذرّة أو سُمعَتها أو رئاستها أو صيتها أو زينتها لا يجاورني في داري ولأَنزِعَنّ من قلبه محبّتي (ولأُظلِمَنّ قلبَه حتّى ينساني ولا أُذيقه حلاوة محبّتي)**»[3].

وإنّ لحبّ الدنيا مراتب؛ فبعض مراتبه مباح لا إشكال فيه، وهو عندما لا يزاحم التكاليف الشرعيّة ولا يستلزم فعل الحرام. لكنّ نفس هذه المرتبة قد تحجب المرء عن الأمور الأفضل منها. أمّا المراتب الأشدّ من حبّ الدنيا فقد تجرّ الإنسان شيئاً فشيئاً إلى حيث عدم الإباء عن ارتكاب المحرّم، والاستعداد لتضييع حقوق الآخرين، واستساغة التطاول على بيت المال، وإشاعة الفتن،

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج91، ص 98، باب 32.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 21 آب، 2011م.

(3) العلامة النوري، مستدرك الوسائل، ج12، ص 36.

وعـدم التواني عـن ارتكاب آلاف الكبائر من أجل التشبّث بضعة أيّـام أخرى بكرسيّ الرئاسة. ومن أجـل الحيلولـة دون وقوعنا في هذه الورطة يتحتّم علينا قمع ميلنا نحـو الدنيا كلّما أحسسنا بتزايد في هذا الميل»[1].

## السبيل لعلاج حبّ الدنيا

«فـإذا أحسّ المرء بازدياد نزوع نفسـه نحو المال فعليه أن يُنفق في سبيـل الله من أمواله التي كسبهـا بعنـاء: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2]، وإنّ أرضيّة الإنفاق في هـذه الأيّام مهيَّئة بوفرة. فإن لم ينتهز المرء هذه الفرصة في حدود ما يُسّر له فهو خاسر.

فإن كانت الميول الحيوانيّة والشهوانيّة للإنسان جامحة فلا بدّ أن يحدّ من انتفاعه المحلّل منها كي يحـول دون تجرّؤ نفسه على طلب الحـرام. فعلى المرء بغية التخلّص من النظرة المحرّمة أن يتغاضى حتّى عن بعض النظرات المحلّلة أيضاً. فهل من الضروريّ يا ترى أن يمدّ الإنسان عينه إلى كلّ شيء؟! فينبغي له أن يغضّ طرفه عن كلّ موضع يتوقّع أن ينجرّ إلى الحرام من خلال النظر إليه»[3].

## تحذير للإخوة من طلبة العلوم الدينيّة

«أمّـا نحن طلبة العلوم الدينيّة فتقع على عاتقنـا مسؤوليّة أعظم؛ إذ يتعيّن علينا إنذار الآخرين مـن هذه الأمور وتعريفهم بالمعـارف الدينيّة والأخلاق الإسلاميّة وردع النـاس عن التعلّق بالدنيا. فإنْ أصابنا نحن بعض الدنس – لا قدّر الله – فإنّنا سنكون قد ارتكبنا ذنباً مضاعفاً أوّلاً، ولن يعود حديثنـا ذا أثـر على الآخرين ثانيـاً، وهنا تكمن التفاتـة لا بأس أن أوضّحها من خـلال الاستشهاد بحديـث شريف. وأقول من بـاب المقدّمة: إنّ كِبَر أو صِغَر الذنـوب الاجتماعيّة يعتمد إلى حدٍّ كبير علـى المكانـة الاجتماعيّة التي يتمتّع بها الشخص. فكلّمـا زادت حساسية مكانة المرء في المجتمع زاد ثوابـه على أعماله الصالحة وتضاعف إثمه وعقابه على ارتكاب المعصية. يقول القرآن الكريم في هذا الصدد مخاطبـاً نساء النبيّ ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾[4]؛ فإن اتّقيتُـنّ الله كان ثوابكـنّ ضعف ثواب غيركنّ، وإذا عصيتُنّه فإنّ إثمكـنّ أعظم أيضاً. ويقول الإمام الصادق عليه السلام في هذا الباب: «**يُغفَر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغفَر للعالم ذنب واحد**»[5].

---

(1) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 21 آب، 2011م.

(2) سورة آل عمران، الآية 92.

(3) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 21 آب، 2011م.

(4) سورة الأحزاب، الآية 32.

(5) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج2، ص27.

فالذيـن لم يوفَّقوا إلى الإحاطة بمعارف الدين ولم تَبلغهـم علومُه يُغفَر لهم بسهولة إذا ارتكبوا المعصيـة. أمّـا الذي أمضى عمره مـع الكتاب والسنّة ونبَت لحمه وصَلُب عـوده من بيت المال ومن بركات أهل البيت عليهم السلام فإنّ ذنبه لا يساوي ذنب غيره، وكلّما زاد التفات الناس إليه واهتمامهم به تضاعفت حساسية أفكاره وأعماله بالتبع. يروي إمامنا جعفر الصادق عليه السلام حديثاً قدسيّاً في هذا الصـدد يقول فيه: «أوحى الله عزّ وجلّ إلـى داود عليه السلام: لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدَّك عن طريق محبّتي، فإنّ أولئك قُطّاع طريق عبادي المريدين. إنّ أدنى ما أنا صانع بهم أنْ أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم»[1].

فسـواءٌ شِئنـا أم أبينا فإنّ هناك وسائطَ يكونـون بين العباد وربّهم؛ ذلـك أنّ عامّة الناس إنّما يأخـذون دينهم من العلماء، والعلمـاء يأخذون علمهم من الأئمّة والأنبياء عليهم السلام، ولذا يُشكّل هؤلاء الوسائـط بيـن الله وعبـاده، وفي هـذا الحديث يعظنـا الباري عزّ وجـلّ بضرورة توخّـي الدقّة في اختيارنـا للوسائط والنظر فيمن نأخذ منهم دينَنا، فحذارِ من أن تُوسِّطوا بيني وبينكم عالماً مُحبّاً للدنيا، لأنّ أمثال هؤلاء العلماء إنّما هم قُطّاع طرق يصدّون عبادي عن التوجّه إليّ، فالارتباط بمثل هـؤلاء العلمـاء يوجب الغفلة عن ذكر الله تعالـى؛ لأنّ ما سيُشاهده الناس فـي سيرة هؤلاء هو حبّ الدنيـا والتعلّـق بها والشهوة إلى المـال والمنصب والشهرة. والناس بالطبـع سيتعلّمون هذه الأمور منهـم ويسيـرون في إثرهم على نفس الدرب، فإنْ حدث ذلك، فـإنّ أقلّ ما أنا صانع بهؤلاء هو أنّني سأسلبُهم محبّتي (فإمّا محبّتي وإمّا حبّ الدنيا) وأنزع منهم - تبعاً لذلك - حلاوة مناجاتي»[2].

## حلاوة المناجاة

وبناءً عليه فإنّ على من يُفتّش عن حلاوة المناجاة مع الله تعالى أن يحدّ من تعلّقاته الدنيويّة. بل عليه أن يغضّ طرفه حتّى عن الأمور غير المحرّمة كي لا تحلّ محلّ حبّ الله عزّ وجلّ؛ ذلك أنّ القرآن الكريـم يقـول: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[3]؛ أي: لا يمكن الجمع بين حبّين متضادّين في قلب واحد. فإنْ كان أحد الحبّين هو بمثابة شعاع للحبّ الآخر؛ كحبّ أهل البيت عليهم السلام بالنسبة لحـبّ الله تعالى، فلا تنافي بينهما حينئـذٍ؛ ذلك أنّ الأوّل هو شعاع نفس ذاك المنبع وهو ناشئ من المصدر نفسه.

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص 46.

(2) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 21 آب، 2011م.

(3) سورة الأحزاب، الآية 4.

أمّا إذا أردتَّ أن يُشرق حبّ الله في قلبك فعليك أن تُخرج حبّ الدنيا منه، فيتعيّن عليك في بادئ الأمـر أن تُحاول جهـدك أن لا تتذوّق لذّة المعصية؛ لأنّ المرء إذا تـذوّق الذنب فسيُحبّه، فالإنسان يُحـبّ مـا يلتذّ به، ومن هنـا فإنّ ترك المـرء للذنب يُساعد على عـدم التعلّق به؛ ذلـك أنّه لم يذق طعمـه. وفي مثـل هذه الحالة فإنّه سيوفَّق إلى المناجاة والدعاء والأنس مع الله جلّ وعلا، وكما قال الإمـام الباقر عليه السلام فإنّ بإمكانه أن يوفّق إلى التوبة عن طريق الدعاء والمناجاة في ظلمات الليل، ففـي مثل هذه الظروف يودّ المرء لو يُناجي محبوبه وهو مختَل به ولا تعود المناجاة والدعاء ثقيلين بالنسبة له. فعندما يُحبّ المرء أحداً حبّاً عظيماً فإنّه يرغب أن يراه بمفرده ويتجاذب معه أطراف الحديث، وأن يسمع كلامه، ويُطيل النظر إليه، فعندما يتذوّق العبد حلاوة المناجاة يودِع الله تعالى في قلبه جاذبيّة ويجذبه نحوه بصورة يودّ لو طالت هذه المناجاة وهذه الحالة سبعين سنة.

فمـا أحسـن أن نعمل فـي الليالي بتوصيات الإمـام الباقر عليه السلام وأن نبدأ مـن حيث يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «**استرجع سالف الذنوب**»؛ أي: أن نتصفّح سجلّ ذنوبنا ونُفكّر فيمـا فعلنا من قبائح وما ابتُلينا به مـن مآسي بسبب استمرار تبعات الذنب والتفريط بالعبـادات وأعمال الخير. فللننظر كيف فرّطنا برؤوسـ أموالنـا وكيف نقبع اليوم – حتّى ولو كنّا لا نُدرك ذلك – في وسط نار جهنّم وليس لأيّ أحد إلاّ الله أن يهـبّ لنجدتنـا ويُغيثنـا. فيوم القيامة هو ذلك اليوم الذي سيفـرّ فيه كلّ امرئ من الآخر وسيتورّط كلّ امرئ بتبعات أعماله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾[1]، وسينشغل كلّ شخص بنفسـه: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾[2]، فـإنْ حـاول الإنسان تجسيد هـذه الوقائع في مخيّلته فستحصل عنده حالة من الندم الحقيقيّ وسيعزم جرّاء ذلك على ترك المعصية وتدارك الماضي، وعندهـا سيهبّ الله لنصرتـه ويمنحه حال مناجاته ويُذيقه حلاوة محبّته، فـإنْ تذوّق العبد حلاوة مناجاة ربّه فسينجح في جبران ماضيه ويفيد إفادةً قصوى من مستقبله»[3].

قال مولانا الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**إذا أحبّ الله عبداً ألهمه حسن العبادة**»[4].

---

(1) سورة البقرة، الآية 48.

(2) سورة عبس، الآية 37.

(3) من محاضرة لسماحة آية الله الشيخ مصباح اليزديّ ألقاها في مكتب الإمام الخامنئي في قم بتاريخ 21 آب، 2011م.

(4) الآمدي التميمي، غرر الحكم و درر الكلم، الفصل العاشر في عبادة الله، الحكمة 3935.

مركز نون للتأليف والترجمة

مركز نون، من مؤسَّساتِ جمعيَّةِ المعارفِ الإسلاميَّةِ، يختصُّ بتخطيطِ البرامجِ والمتونِ التعليميَّةِ والثقافيَّةِ، وتأليفِ وإعدادِ المتونِ التعليميَّةِ والثقافيَّةِ العامَّةِ، مُراعياً القواعدَ المنهجيَّةَ والبحثيَّةَ والتربويَّةَ، وحِفظَ الأصالةِ الإسلاميَّةِ.

1035002

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
بيروت ـ لبنان ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org